الفصل الثانى

ماهيّة التحقيق والمواد المساعدة عليه

إن أى باحث فى العلوم الإنسانية، مطالب بتحقيق النصّ الذى يستنبط منه نتائج معيّنة، قبل أن يقدم على استنباط هذه النتائج، وليس من اللازم أن يكون ذلك النص مخطوطا، فكثير من الكتب المطبوعة التى بين أيدينا لاتفترق كثيرا عن المخطوطات، إذ أن الذين تولوا طبعها ونشرها طائفة من الوراقين وبعض الأدعياء الذين لا يدرون عن فن تحقيق النصوص شيئًا[1] ولذا جاءت هذه المطبوعات فى كثير من الأحيان مليئة بالتصحيف والتحريف، ونصوصها مضطربة، مشوَّشة، تبعد كثيرا عن الأصل الذى كتبه مؤلفها ! ولذا وجب أن نعرف ماهية التحقيق.

التّحقيقُ فى عرف أهل العلم: إثْبات المسْألة بالدّليل[2].

وأحقّ الأمر: أوْجَبَه وصيّره حقًّا لا يُشَكّ فيه.

ومحقَّق: أى مُحْكَم، يقال: «كَلام محقَّق» أىْ محْكَم منظم.

وحَقّ الأمْرُ يحُقُّ - بكسْر الحاء وضمّها فى المضارع - حقًّا: أى ثبت ووجب.

وحَقَّ له - بفتح الحاء وضمها - ثبت له أو أثبِت له.

وأحَقَّ الله الْحَقّ: أى أظهَره وأثْبَته للناس.

والحقّ: هو الثابت الصحيح، وهو ضدّ الباطل.

وهو لفظ كثير الورود فى القرآن الكريم، والمراد به على سبيل التعيين يختلف باختلاف المقام الذى فيه الآيات، ومعناه العام لا يخلو من معنى الثبوت والمطابقة للواقع[3].

---

(١) انظر الطبعة الثانية لكتاب (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) للشيخ حسين المرصفى وقد ظهر منها جزءان: الأول سنة١٩٨٠ والثانى سنة١٩٩١ بتحقيق وتقديم الدكتور عبدالعزيز الدسوقى. وانظر نقد ودراسة لهذا البحث فى مجلة معهد المخطوطات بقلم مؤلف هذا الكتاب وانظر ما كتبه المؤلف عن منهجية التحقيق لهذا الكتاب فى جريدة الجمهورية الخميس ٢٨ نوفمبر ١٩٩١.

(٢) التهانوى (كشاف إصطلاحات الفنون) ط كلكتا سنة ١٨٦٢ وذلك نقلا عن الصادق الحلوانى فى حا ة بديع الميزان ويقول الجرجانى فى كتاب التعريفات ص٤٦ ط. التحقيق: إثبات المسألة بدليلها.

(٣) معجم الفاظ القرآن ٢٨٨/١ وما بعدها.

وقال أبوالبقاء: «التحقيق: تفعيل، من حَقَّ بمعنى ثبت.

وقال بعضهم: التحقيق لغة: رجع الشيء إلى حقيقته، بحيث لا يشوبه شبهة، وهو المبالغة فى إثبات حقيقة الشيء بالوقوف عليه. والتحقيق: مأخوذ من الحقيقة، وهو كون المفهوم حقيقة».[١].

ثم يقول: «والتدقيق: إثبات دليل المسألة على وجه فيه دقة»[١].

والتحقيق فى اصطلاح أهل الفن: هو بذل الجهد، واستقصاء البحث، بغية الوصول إلى حقيقة ما قاله مؤلف النص.

أو قل: هو عملية مركبة تقتضى إخراج نص مضبوط يكون على الصّورة التى قاله عليها صاحبه، أو أقرب ما يكون إلى ذلك على الأقل.

والذى اتفق عليه شيوخنا المحققون من ذلك: أن يؤدى نصَّ الكتاب أداء صادقا، كما وضعه مؤلفه، كمًّا وكيفًا بقدر الإمكان.

فيتساءل المحقق بالنسبة لذلك النص عدة تساؤلات:

١ - هل نسبة النص إلى مؤلفه صحيحة؟ وإذا لم تكن صحيحة، فهل النص منسوب خطأ إلى غير صاحبه، أو أنه نص منتحل بأكمله؟

٢ - هل النص نقىٌّ كامل خالٍ من التغيير أو التشويه أو النقص أو الزيادة؟

٣ - ما هو تاريخ النص؟

والمحقق عرضة فيما ذكر للخطأ، ويجب أن تكون خشية الخطأ باستمرار طريقه العلمى.

فالكتاب المحقق هو: الذى صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التى تركها مؤلفه.

وعلى ذلك فالجهود التى تبذل فى كل مخطوط يجب أن تتناول البحث فى الزوايا التالية:

١ - تحقيق عنوان الكتاب.

٢ - تحقيق اسم المؤلف.

٣ - تحقيق نص الكتاب، حتى يظهر بقدر الإمكان مقاربا لنص مؤلفه.

ولما كان من العسير وجود نسخة المؤلف - خاصة فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة - اعتبرنا الإملاء الذى يراجعه المؤلف مساويا للنسخة التى بخط المؤلف.

وبديهى أن وجود نسَخة المؤلف أو الإملاء الذى راجعه، لا يحوجنا إلى مجهود إلا بالقدر

---

(١) كليات أبى البقاء ص ١٢٢ طبعة بولاق سنة ١٢٣٥هـ .

الذى نتمكن به من حسن قراءة النص، نظرًا إلى ما قد يوجد فى الخط القديم من إهمال النقط والإعجام، ومن إشارات كتابية لا يستطاع فهمها إلا بطول الممارسة والإلف، وهذا الأمر يتطلب عالما فى الفن الذى وضع فيه الكتاب، متمرسا بخطوط القدماء.

وليس تحقيق النص تحسينا أو تصحيحا، وإنما هو أمانة الأداء التى تقتضيها أمانة التاريخ، فإن نص الكتاب حكمٌ على المؤلف وتأريخ لتفكيره، وهو كذلك حكمٌ على عصره وبيئته، وهى اعتبارات تاريخية صادقة لها حرمتها.

والتصرف فى نص الكتاب اعتداء على المؤلف الذى له وحده حق التبديل والتغيير أو التنقيح.

١ - تحقيق العنوان:

وليس بالأمر الهيِّن. فبعض المخطوطات يكون خاليا من العنوان:

(أ) إما لفقد الورقة الأولى منها.

(ب) أو انطماس العنوان.

(جـ) وأحيانا يثبت على النسخة عنوان واضح جلىّ، ولكنه يخالف الواقع

١ - إما من دواعى التزييف.

٢ - وإما لجهل قارئٍ مّا، وقعت إليه نسخة مجردة من عنوانها فأثبت ما خاله عنوانا.

فيحتاج المحقق فى الحالة الأولى إلى إعمال فكره فى ذلك بطائفة من المحاولات التحقيقية كأن يرجع إلى كتب المؤلفات، كفهرست ابن النديم، أو كتب التراجم. أو أن يتاح له الظفر بطائفة من نصوص الكتاب مضمنة فى كتاب آخر، أو أن يكون له إلف خاصا، أو خبرة دقيقة، بأسلوب مؤلف من المؤلفين وأسماء ما ألف من الكتب، فتضع تلك الخبرة فى يده الخيط الأول، للوصول إلى حقيقة عنوان الكتاب.

والانطماس الجزئى لعنوان الكتاب، مما يساعد كثيرا على التحقيق من العنوان الكامل متى وضع معه فى النسخة اسم المؤلف، فإن تحقيقه موكول إلى معرفة ثبت مصنفات المؤلف، وموضوع كل منها متى تيسّر ذلك.

وأما التزييف المتعمّد فيكون بمحو العنوان الأصيل للكتاب، وإثبات عنوان لكتاب آخر، أجلّ منه قدرًا، ليلقى بذلك رواجا، وقد ينجح المزيف نجاحا نسبيا بأن يقارب ما بين خطه ومداده، فيجوز هذا على من لا يستطيع الحذر والريبة فى ذلك.

وأما التزييف الساذج فمنشؤه الجهل، فيضع أحد الكتاب فى صدر الكتب الأغفال عنوانا يخيّل إليه أنه هو العنوان الأصيل.

٢ - تحقيق اسم المؤلف:

إن كل خطوة يخطوها المحقق لابد أن تكون مصحوبة بالحذر، فليس يكفى أن نجد عنوان الكتاب، واسم مؤلفه فى ظاهر النسخة أو النسخ، بأن المخطوطة من مؤلفات صاحب الاسم المثبت، بل لابد من إجراء تحقيق علمى، يطمئن معه الباحث إلى أن الكتاب نفسه صادق النسبة إلى مؤلفه[١].

وأحيانا تفقد النسخة النصَّ على اسم المؤلف، فمن العنوان يمكن التهدى إلى ذلك الاسم، بمراجعة فهارس المكتبات، أو كتب المؤلفات، أو كتب التراجم التى أخرجت إخراجا حديثا وفهرست فيها الكتب، كمعجم الأدباء لياقوت، وإنباه الرواة للقفطى، أو غير ذلك من الوسائل العلمية.

على أن اشتراك كثير من المؤلفين فى عنوانات الكتب يحملنا على الحذر الشديد فى إثبات اسم المؤلف المجهول، إذ لابد من مراعاة اعتبارات تحقيقية، ومنها المادة العلمية للنسخة، ومدى مطاوعتها لما يعرفه المحقق عن المؤلف، وحياته العلمية، وعن أسلوبه وعصره.

والمحقق إذا عثر على نصوص معقولة من الكتاب منسوبة إلى مؤلف معيَّن فى نقل من النقول كان ذلك مما يؤيد ما يرجحه، أو يقطع به فى ذلك.

وأحيانا تدل المصطلحات الرسمية فى الكتاب على ما يوجهنا إلى تعيين عصر المؤلف، يظهر ذلك لمن قرأ شيئا من هذه المصطلحات فى صبح الأعشى للقلقشندى، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى.

وقد يعترى التحريف والتصحيف أسماء المؤلفين المثبتة فى الكتب، فالنصرىّ قد يحرف

---

(١) انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب (الأدب فى الدين) المنسوب إلى أبى حامد الغزالى. طبعة كتاب اليوم العدد ٣٠٧ أبريل سنة ١٩٩٠.

وجاء فى مقدمة لجنة تحقيق السيرافى على سيبويه ١ / ٣٠ .. أنه قد نسب إلى أبى سعيد السيرافى هذه الكتب وليست له. وهى :

١ - شرح الغريب المصنف.

٢ - شرح شواهد إصلاح المنطق (معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٩٧ - ٥٥٣)

فالكتابان لأبى محمد يوسف السيرافى .. لا، لأبى سعيد السيرافى.. وقد أخطأ بروكلمان فى نسبة هذين الكتابين للسيرافى.. الأب. ويرجع هذا بالنسبة للكتاب الثانى إلى خطأ فى مخطوط كبريلى ١٢٩٦ و١٣٠٠ إذ يحمل اسم أبى سعيد مؤلفا، وتدل كتب الطبقات والمقتبسات، والاشارات المتأخرة دليلا قاطعا على كون الكتابين (لابن سعيد السيرافى) وليسا (لأبى سعيد) نفسه.

٣ - الاغراب فى جدل الإعراب:

هذا الكتاب ليس لأبى سعيد السيرافى. بل هو لابن الأنبارى.. وقد نسب هذا الكتاب للسيرافى اعتمادا على ما جاء على غلاف مخطوط ليدن من هذه الكتاب. وقد حقق هذا القول الأستاذ سعيد الأفغانى عندما حقق هذا الكتاب ونشره فى دمشق سنة ١٩٥٧م. ثم حققه عطيه عامر، فى استوكهولم سنة١٩٦٥م.

بالبصرىّ، والحسن بالحسين، والخرّاز بالخزّاز، وكل ذلك يحتاج إلى تحقيق لا يكتفى فيه بمرجع واحد، فقد يكون ذلك المرجع فيه عين ذلك التصحيف، أو تصحيفآخر أقسى منه. فليس هناك بدٌّ من اجتلاب الطمأنينة فى ذلك بالبحث العلمى الواسع. وما قيل فى تزييف العناوين يقال أيضا فى تزييف أسماء المؤلفين، لذلك لم يكن بدٌّ من تنبيه المحقق لهذا الأمر الدقيق.

٣ - تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه:

ليس بالأمر الهين أن نؤمن بصحة نسبة أى كتاب كان إلى مؤلفه، ولا سيما الكتب الخاملة التى ليست لها شهرة، فيجب أن نعرض هذه النسبة على فهارس المكتبات والمؤلفات الكتبية، وكتب التراجم؛ لنستمد منها اليقين أن هذا الكتاب صحيح الانتساب.

وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس فى تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها[١]، فالكتاب الذى تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذى نسب إليه، جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف. ومن أمثلة ذلك كتابٌ نسب إلى الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وعنوانه : « كتاب تنبيه الملوك والمكايد » منه صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٥ أدب ومن أبوابه : « لكن من مكايد كافور الإخشيد ومكيدة توزون بالمتقى بالله » وحياة الأول بين سنتى ٢٩٢ و ٣٥٧ هـ والثانى بين ٢٩٧ و ٣٥٧ هـ وهذا كله بعد وفاة الجاحظ بعشرات السنين كما ترى .

كما أن دارس أسلوب الكتاب يحكم لأول وهلة بأن الجاحظ برىء منه وإنما حمل عليه حَمْلا !

٤ - تحقيق نصّ الكتاب:

وتحقيق نص الكتاب، أمر جليل، يحتاج من الجهد والعناية أكثر مما يحتاج إليه التأليف. وقديمًا قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان): «ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفًا، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعانى، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص،حتى يردّه إلى موضعه من اتصال الكلام»[٢].

ويثور سؤال آخر: ما هى الأمور التى تعين على إقامة النص، وتجنِّب المحقق مزالق سوء الأداء؟

فأول تلك الأمور: التمرس بقراءة المخطوط، فإن القراءة الخاطئة، لا تنتج إلا خطأ. وبعض كتابات الأقدمين يحتاج إلى مراس طويل وخبرة خاصة، ولا سيما تلك الخطوط

---

(١) انظر مقدمة تحقيقنا لكتاب(رسالة فى علم الموسيقا) للصفدى طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٩١.

(٢) الحيوان للجاحظ ١/٧٩.

العتيقة التى لا يطّرد فيها النقط والإعجام، وكذلك تلك المخطوطات التى كتبت بقلم كوفى قديم، أو بقلم أندلسى أو مغربى، وللأندلسى والمغربى صورهما الخاصة ونقطهما الخاص، ولكل كاتب بأحد القلمين لازمة لا تكون لأخيه، وتصوير يخالف تصوير أخيه.

وإذا تركنا ذلك وقرأنا فى الخطوط المعتادة، وجدنا لكل كاتبٍ من الكتّاب طريقةً خاصة تستدعى خبرة خاصة كذلك.

فنحن نجد من يقارب بين رسمى الدال واللام، فلا نشعر بالفرق بينهما فى النظر، أو فى رسمى (الغين) المعجمة و(الفاء) كذلك، مع أن لكل منهما ضابطًا خاصًا، ولكنّ الخبير بالخط يستطيع بخبرته أن يفصل بينهما.

ونجد كذلك كثيرًا من الكتّاب الأقدمين يكتبون على طريقةٍ خاصةٍ بهم فى الرسم الإملائى. وهذا يحتاج أيضًا إلى خبرة خاصة تكتسب بالمرانة، وبالرجوع إلى كتب الرسم القديمة، أعنى الإملاء.

ومما هو جدير بالذكر أن النقْط تختلف طرائقه فى الكتابة المشرقية والكتابة المغربية إلى وقتنا هذا، ولا سيما فى الريف المغربى، إذ نجد الفاء عندهم إلى الآن تميز بنقطة واحدة من أسفلها وليس من أعلاها، على حين نجد القاف عندهم تميز بنقطة واحدة لكن فى الأعلى لا فى الأسفل. فهذا أمر يحتاج إلى يقظة ودراية.

وفى الكتابات القديمة أيضًا توضع بعض العلامات لتأكيد إهمال الحروف المهملة كالسين. نجد بعضهم يميز إهمالها بوضع ثلاث نقط من أسفلها، فى مقابل تمييز إعجام الشين بوضع ثلاث من فوقها. وبعضهم يدل على إهمال السين بتركها كما هى، على حين يميز أختها الشين بوضع نقطة واحدة فى أعلاها، وبعضهم يكتب تحت السين المهملة سينًا صغيرة.

ومن الكتاب القدماء من يميز الحرف المهمل بوضع همزة فى أعلاه أو تحته إشارة إلى «إهمال» أو «أهمل». ومنهم من يضع فوق المهمَّل خطا أفقيا لحظر وضع النقط، أو يضع رسمًا كالهلال الصغير من فوقه. ومنهم من يضع للإهمال علامة شبيهة بالرقم ٧

وبعض الكلمات التى تقرأ بالإهمال وبالإعجام معًا قد ينقط الحرف من أعلى ومن أسفل كذلك بنقطة، أو يضع فوق السين نقطًا ثلاثا ومن أسفلها كذلك إشارة منه إلى جواز القراءتين كالتشميت والتسميت: «التشميت»، وهو الدعاء بالسلامة من شر العطاس. ونحو ذلك: المضمضة والمصمصة: «المضمضة».

وفى (الإعجام) بمعنى الشكل والضبط يحتاج المحقق إلى خبرة خاصة، وذلك فى الكتب العتيقة. وكان أبو الأسود يسميه «النقط». يقول أبو الأسود الدؤلى لكاتبه القيسى:

إن رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط على أعلاه. وإن ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف، أى أمامه. وإن كسرت فمى فاجعل النقطة تحت الحرف. فإن أتْبعت ذلك شيئًا من غنَّة - يعنى التنوين - فاجعل مكان النقطة نقطتين». وقد وجدنا تطبيق ذلك عمليًا فى المخطوطات الذاهبة فى القدم من المصاحف وغيرها.

وفى الكتابة القديمة كثيرًا ما تهمل كتابة الهمزة الواقعة فى نهاية الكلمات الممدودة وغيرها، مثل ماء وسماء ورداء، ومثل شيء وفِيء وضَوء، تكتب: ما، وسما، وردا، وشى، وفى، وضَو. وفى بعض الأحيان قد يسهلون الهمزة المتوسطة فى مثل بير وذيب الخ..

ونجد كذلك أن الهمزة المكسورة التى التزمنا اليوم بكتابتها تحت الألف يكتبها بعض الأقدمين تحت الحرف أو فوقه أيضًا.

والشدة، وهى رأس الشين، نجدها فى الكتابة القديمة حينًا فوق الحرف، وحينًا آخر تحته إذا كانت مقرونة بالكسرة.

والفتحة مع الشدة التى ألفنا كتابتها فوق الشدة نجد كثيرًا من الأقدمين لا يبالى بذلك، فما دامت الفتحة فوق الحرف فهى فتحة، سواء أكانت الشدة تحتها أم كانت فوقها، على حين نعدّ نحن الآن أن الفتحة الموضوعة تحت الشدة هى تعبير عن الكسرة لا غير.

ووضع الكسرة تحت الشدة فوق الحرف أمر لا يكاد يوجد فى المخطوطات العتيقة.

ونجد فى المخطوطات المغربية من يضع الضمة تحت الشدة فوق الحرف. وفى كثير من الكتابات القديمة توضع الشدة على الحرف الأول من الكلمة اللاحقة إذا كان مدغمًا فى آخَر من نهاية الكلمة السابقة مثل: «بل رّان» توضع شدة على الراء مع أنها فى أول كلمة. وكذلك نحو: أهلكتَ مالاً لّو قَنَعت به» بوضع شدة على لام «لو».

ومع هذا نجد أن شكل الشدة فى الكتابة المغربية تكتب كالعدد (٧) شديدة التقويس. يقول شيخنا عبد السلام هارون[١]:

«وقد عثرت على مخطوط أندلسى عتيق، هو كتاب العَقَقَةُ والبرَرَة لأبى عبيدة، وقد التزم فيه كاتبه نَمَطًا غريبًا، هو وضع الحركات العلوية، وكذلك السكون، تحت نقط الإعجام. فكلمة «مُضْغَة» كتب تحت نقطة الضاد سكونًا، كما وضع فتحةَ الغين تحت نقطة الغين لا فوقها.

وفى النسخة المغربية من كتاب المحتسب لابن جنى بدار الكتب المصرية وجدت الشدة

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ٤٩ سنة ١٩٨٤.

مع الفتحة يعبّر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٧) أما الشدة مع الضمة فإنها يعبر عنها بعلامة فوق الحرف شبيهة بالعدد (٨). وأما الشدة مع الكسرة فيعبر عنها بعلامة (٨) أيضًا، ولكن بوضعها تحت الحرف».

ومما يجب أن يعرفه المحقق ما يسمى بعلامة التمريض، وهى الحرف (ض) يوضع فوق العبارة التى هى صحيحة سليمة فى نقلها مطابقة للأصل، ولكنها خطأ فى ذاتها، وذلك لكى يخلى الكاتب الأمين عهدته من خلل النص الذى نقله كما هو.

وهناك علامة تسمى علامة التثليث، وهى الحرف (ث) يوضع فوق الكلمة اقتباسًا من كلمة التثليث، أى ضبط الحرف من الكلمة بثلاثة ضبوط: الفتح والضم والكسر، نحو: وَجَدَ وُجِدَ وِجِد، توضع النقط الثلاث فوق الواو إشارة إلى اللغات الثلاث. وقد وجدت هذه العلامة فى مخطوطة الاشتقاق لابن دريد.

وعلامة أخرى تدل على وجود البياض بالنسخة، أى فراغ لم تثبت فيه كلمة، وهى الحرف (ض) يكتب فى موضع البياض إشارة إليه، وهذه العلامة مقتبسة من كلمة «بياض». وقد وجدت هذا فى نسخة مخطوطة من جمهرة أنساب العرب لابن حزم.

وكان للكتاب القدماء ذوق خاص فى التحرز من تشويه الكتابة، فإذا أخطأ بزيادة بعض الكلمات، أشار إلى ذلك بوضع خط معقف الطرفين فوق الكلمة أو الكلمات الزائدة هكذا [٠٠٠]، أو أشار إلى ذلك بوضع دائرتين صغيرتين (٥٠٠٠٥) إحداهما فى بدء الزيادة والأخرى فى نهايتها، أو أشار إلى ذلك بوضع نصفى دائرة (« ») أحدهما فى بدء الزيادة والآخر فى نهايتها.

وإذا أخطأ بالتقديم والتأخير، وضع فوق الكلمتين المضطربتين أو الكلمات ألفين صغيرتين. وجدت فى إحدى المخطوطات: (سنة ومائة إحدى) وقد وضعت ألف صغيرة فوق «ومائة»، وألف أخرى كذلك فوق كلمة «إحدى» أى اقرأ: سنة إحدى ومائة. وقد يوضع فى هذا المجال أيضًا أى الإشارة إلى التقديم والتأخير مثل الحرفان (خ) و (ق) أو (خ)، و (م) أى تأخير وتقديم. أو الحرفان (م) و (م) إشارة إلى مقدّم ومؤخّر.

وهناك رموز واختصارات لبعض الكلمات أو العبارات، نجدها فى المخطوطات، ولا سيما كتب الحديث، وهو سبقٌ سبق به أسلافنا العرب، وقلّدهم فى ذلك الفرنجة وأسرفوا فيه إسرافًا، وذلك نحو:

ثنا – حدثنا
ثنى – حدثنى
أنا – أنبأنا أو أخبرنا
قثنا – قال حدثنا
ش – الشرح
الش – الشارح
المص – المصنِّف. أى المؤلف.
ص – المصنَّف. أى المتن.
م – معتمد أو معروف.
وقد استعمله صاحب القاموس
ومن بعده بمعنى معروف.
إلخ – إلى آخره.
اهـ – انتهى

س – سيبويه
لا يخـ– لا يخفى
سم – ابن أم قاسم
عم – عليه السلام
صلعم – صلى الله عليه وسلم
رض – رضى الله عنه
ع – موضع، وقد استعمله صاحب القاموس ومن بعده.
ج – جمع.
جج – جمع الجمع.
جججج – جمع جمع الجمع.
ح – حينئذ. وهكذا.

هذا هو بعض ما ينبغى معرفته مما يكتسب من التمرس بقراءة المخطوطات. وبنقص هذه الخبرة يقع المحقق فى مزالق جمة تبعده عن الصواب وتجنح به إلى تشويه النصوص البريئة، وتمهد له سبيل العدوان عليها وهذا هو الأمر الأول الذى جعلت قضيته هى: التمرس بقراءة المخطوطات.

والحسُّ اللغوى، أمر ضرورىّ جدا فى معالجة النصوص، فأنت حين تعالج نصًّا تريد نشره أو الإفادة منه فى موضوع تبحثه، وقد استغلق عليك فهم هذا النص، فأنت بين أمرين:

إما أن يكون العيب فيك أنت، لأن محصولك اللغوى قليل، لم يصل بعد إلى مرحلة تتمكن فيها من فهم هذا النص دلالة أو تركيبا.

وإما أن يكون النص الذى أمامك قد أصابه التصحيف أو التحريف، أوالسقط والتغيير! والمحقق المنصف هو الذى يبدأ عادة باتهام نفسه، قبل أن يتهم النص الذى أمامه.

والمحقق الذى يبدأ عادة باتهام النص يرتكب من الحماقات فى تغييره ما يجعل مؤلفه يتململ فى قبره.

وفهم النص هو الطريق إلى تحقيقه على الوجه الأمثل، ويتبين لنا: أن فهم النص، ضرورى جدًّا لتحقيقه على الوجه الصحيح، وأن اتهام المحقق نفسه بعدم الفهم يجب أن

يسبق اتهام النص بالتحريف والتصحيف، أوالخلط والاضطراب، وأن الإقدام على تصحيح النص بالباطل أمر لايليق !!

أما الأمر الثانى: فهو التمرس بأسلوب المؤلف. ومعرفة لوازم ذلك الأسلوب، والوقوف على ما يؤثره من العبارات والألفاظ، وتعرُّف الأعلام التى يديرها فى كتابه، والمعارف والحوادث التى يتكرر إيرادها، وهذا كله بعد تصور العصر الذى عاشه، والبيئة التى اشتملت عليه اشتمالاً، وبدا أثرها عليه فى تفكيره وأسلوب تفكيره، فالإنسان وليد بيئته.

وأدنى صور التمرس بأسلوب المؤلف: أن يرجع المحقق إلى أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من كتب المؤلف، وذلك ليزداد خبرة بأسلوبه وظروفه، وليقدر على أن يوجد ترابطًا بين عباراته فى هذا الكتاب وذاك، فإن معرفة ذلك مما يعين فى تحقيق النص، والتهدى بصدق إلى الصواب فيه.

والأمر الثالث: هو الإلمام بالموضوع والقضايا التى يعالجها المخطوط، حتى يمكن المحقق أن يفهم النص فهمًا سليمًا يجنبه الوقوع فى الخطأ حين يظن الصواب خطأ فيحاول إصلاحه، أى يحاول إفساد الصواب.

وهذا الإلمام إنما يتحقق بدراسة بعض الكتب التى تعالج الموضوع نفسه. أو موضوعًا يقاربه أو يتصل به، ليستطيع المحقق أن يعيش فى الأجواء المطابقة أو المقاربة أو المماثلة، وكى يكون على بصيرة نافذة.

والأمر الرابع: من وسائل تحقيق النص هو المراجع العلمية ذات العلاقة المباشرة بالمخطوط؛ ومعنى هذا أن المحقق إذا اجتمع لديه أقصى ما يمكن جمعه من مخطوطات الكتاب واستطاع قراءتها قراءة سليمة، وعرف أسلوب المؤلف، وألم إلمامًا كافيًا بموضوع الكتاب استطاع أن يمضى فى التحقيق مستعينًا بالمراجع العلمية المباشرة التى يمكن تصنيفها على الوجه التالى:

١ - كتب المؤلف نفسه مخطوطها ومطبوعها.

٢ - الكتب التى لها علاقة نسب بالكتاب كالشروح والمختصرات والتهذيبات. فنسخة الشرح هى من جهةٍ شرْحٌ وضبط وتقييد، ومن جهة أخرى نسخة ثانية من الكتاب تتكفل بتوضيح الغوامض وتجلية النص، وهو أمر له قيمته فى مكملات التحقيق.

ويلى نسخة الشرح نسخة المختصر أو التهذيب، فإن كلا منها تلقى ضوءًا لا يستهان به فى تحقيق النص.

ومن البديهىّ أن يرجع المحقق فى ذلك إلى المخطوطات ما أمكنه ذلك، وألا يعتمد على المطبوعات الخالية من الروح العلمية المحققة.

٣ - وهناك ضرب آخر من المراجع التى لها علاقة حميمة بالكتاب، وهى الكتب التى اعتمدت فى تأليفها اعتمادًا كبيرًا على الكتاب، وهذه كثيرًا ما تحتفظ بالنص الأصلى للكتاب الأول.

كما يجب على المحقق الرجوع إلى المصادر التى نقل عنهاالمؤلف، ولزمه كذلك مراجعة المؤلفات المماثلة للكتاب الذى يحققه، فإذا كان يحقق كتابا فى النحو - مثلا - راجع الكتب المتخصِّصة فى موضوعه، أو كتابا فى الطب لايغفل التراث الطبى عند العرب.. وهكذا؛ فإن كل ذلك يعين على تحقيق النص على وجه العموم.

وقد كان القدماء من علمائنا يصنعون ذلك، ومراجعة المصادر المتخصصة فى موضوع النص الذى نحقِّقه، أمر ضرورى جدًّا لتصحيح ما قد يبدو فى الظاهر صحيحا لا غبار عليه، وهو فى حقيقة أمره مصحّف محرّف !!

ويفيد كذلك أن يرجع المحقق إلى الاقتباسات المتأخرة عن الكتاب فى بطون المؤلفات المختلفة، غير أن الحذر هنا ضرورى جدًّا، لأن بعض المؤلفين فى اقتباساتهم ما لايهمهم من عبارات الكتب التى يستخدمونها، أو يعيدون صياغة العبارة أحيانا بما يتفق مع السياق الذى يضعونها فيه.

ولكن مهما كان من أمر الصورة التى آل إليها الاقتباس هنا وهناك فإنه يلقى الضوء على ما التبس من عبارة المخطوطة أو أصابة التحريف والتصحيف على أيدى النساخ، فى مختلف الأزمنة.

والحواشى والشروح التى صنعها العلماء لبعض الكتب تعد فى غاية الأهمية كذلك؛ لإلقاء الضوء على عبارات هذه الكتب، وتقويم ما أصابها من أوهام النساخ عبر العصور.

ولنضرب لذلك مثلا بكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشرى؛ إذ نجد أنه من الكتب التى اعتمدت على كتب الجاحظ. ولا سيما كتاب الحيوان، فى زاوية معينة عند كلام الزمخشرى على الحيوان، «فنجده» يقتبس نصوصًا كثيرة بأعيانها وألفاظها منه. وقد أعاننى هذا كثيرًا عند تحقيقى لكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشرى.

والكتاب نفسه - أعنى ربيع الأبرار - من الكتب التى اعتمدت على كتاب البيان والتبيين للجاحظ أيضًا، فنجد كتاب الزهد فيه، ونجد نصوص الخطب والوصايا التى تحتل مساحة كبيرة من ربيع الأبرار، جلُّها ومعظمها فى كتاب البيان والتبيين. ويعتمد أيضا على كتاب الحيوان للجاحظ خاصة فى الهوام والحشرات.

٤ - ومن المراجع المعينة على إقامة النص وتجنيب المحقق مزالق سوء الأداء عكس

المراجع السابقة، وهى المراجع التى استقى منها المؤلف. فإذا تهدَّى المحقق إلى المنابع والموارد التى استمدّ منها المؤلف تأليفه كان ذلك معوانًا له على إقامة النص. وكان بعض المؤلفين القدماء ينصّون فى صدور كتبهم أو فى أواخرها، على المراجع التى استقوا منها كما نفعل نحن الآن فى مناهج تأليفنا للكتب الحديثة، ويظنه البعض منّا أن ذلك من مستحدثات العصر الحديث مجاراة للأوربيين، مع أنها منهج قديم عند المؤلفين العرب.

فنحن نجد ابن فارس (ت - ٣٩٥) فى مقدمته لكتابه «مقاييس اللغة» ينص على مراجعه التى اعتمد عليها فى كتابه، وهى: العين للخليل، وغريب الحديث ومصنف الغريب، وكلاهما لأبى عبيد القاسم بن سلام، والمنطق لابن السكيت، والجمهرة لابن دريد. ويقول ابن فارس بعد أن سردها: «فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة. وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها، حتى إذا وقع الشىء النادر نصصناه إلى قائله إن شاء الله».

وابن منظور (ت٧١١هـ) فى مقدمة لسان العرب فعل ذلك أيضًا، وسرد لنا من تلك المراجع خمسًا رئيسية أيضًا هى: التهذيب للأزهرى، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهرى، وأمالى ابن برىّ على الصحاح، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

وابن حجر (ت٨٥٢) فى مقدمته لكتابه «تهذيب التهذيب» نصّ على كتاب الكمال للمقدسى، وتهذيبه للمزى، والكاشف للذهبى، وتذهيب التهذيب له أيضًا، وما جمعه مغلطاى على تهذيب الكمال.

وكذلك السيوطى (ت٩١١) فى «بغية الوعاة» ذكر فى مقدمته طائفة كبيرة من المراجع التى اعتمد عليها والتى أربى عدد مجلداتها على ثلثمائة مجلد.

وفاقهم جميعًا فى ذلك عبد القادر البغدادى (١٠٣٠ - ١٠٩١ هـ) صاحب خزانة الأدب الذى سرد فى مقدمتها أسماء مئات من المراجع التى اعتمد عليها وساقها مرتبة ترتيبًا علميًا على حسب الفنون وفروعها. وكذلك تاريخ الإسلام، للذهبى.

وقد يكشف المحقق النقاب عن كتاب يعتمد اعتمادًا كليًا أو جزئيًا على مؤلف آخر يقتبس منه دون النص فيه على ذلك، كما حدث ويحدث فى عصرنا هذا. يقول شيخنا المرحوم عبد السلام هارون: «وأذكر هنا ما عثرت عليه عند تحقيقى لشرح المرزوقى لحماسة أبى تمام. إذ وجدت كثيرًا جدًا من نصوصه بالنصّ واللفظ، أو بالاتجاه الواحد، وجدتها فى شرح التبريزى للحماسة نفسها. والذى يوازن بين الشرحين يجد أن التبريزى المتأخر عن المرزوقى بنحو ثمانين عامًا، وفاة المرزوقى سنة ٤٢١ ووفاة التبريزى ٥٠٢، يجد أنه فى معظم شروحه كان كَلًّا وعالة على المرزوقى.

وكما صنع التبريزى - غفر الله له - هذا فى شرحه للحماسة، أدار وجهه مرة أخرى إلى شرح ابن الأنبارى للقصائد السبع الطوال، وظل يرتشف من معينه، ويقتبس من كنوزه فى شرحه هو للقصائد العشر. ورب ضارة نافعة، إذ كان انتفاعى بهذا الشرح المقتبس بعامل السطو، معينًا لى ونافعًا لى فى كثير من مشاكل تحقيق شرح ابن الأنبارى».

والتاريخ لا يغفُل عن أمثال هذه السطوات العلمية.

ومن الذين اتهمهم التاريخ بالإغارة على كتب غيرهم، وإن كنت أجل قدره عن ذلك: الإمام عبد الله بن محمد بن السِّيد البطليوسى، عثرت على نصٍّ نادر فى بغية الوعاة للسيوطى[١] عند ترجمته لأحمد بن محمد بن أحمد المرسى المتوفى سنة ٤٦٠هـ يقول فيه: «ونَسَب إليه ابن خلصة شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب. وذكر أن ابن السِّيد البطليوسى أغار عليه - أى على الكتاب - وانتحله». وأقول: لكن لا تزال هذه التهمة فى ذمة التاريخ حتى نرى الكتابين معًا[١].

والأمر الخامس: مما يعين على صحة الأداء هو الرجوع إلى الكتب المعاصرة للمؤلف التى تعالج نفس موضوعه أو تعالج موضوعًا قريبًا منه، فمما لا ريب فيه أن الأجواء العلمية المتعاصرة تلقى أصدق الأضواء وأعلاها على تحقيق النص، إذ أن للمعاصرة أثرًا واضحًا فى الأفكار وفى الألفاظ والأساليب، كما تعين على تصحيح الأعلام والوقائع التى تعاصر المؤلفين.

والأمر السادس: من الأمور التى تعين على صحة الأداء ولا يستطيع المحقق فراقه أو مجانبته هو المراجع اللغوية، إذ هى المقياس الأول الذى تسبر به صحة النص، والدليل الأول كذلك الذى يقودنا إلى حسن فهم النص وتصوره. فأحيانا يحكم المحقق العجلان الذى فارقته الأناة والدقة، على نص من النصوص أنه محرف، أو أنه ذاهب فى الغموض، على حين تنطق نصوص المراجع اللغوية أنه صحيح غاية الصحة، أو أن من اليسر بمكان أن نزيح ما بدا للوهلة الأولى عسر فهمه أو صعوبة إدراكه. ولا يكفى فى هذه المهمة ضرب واحد من المراجع اللغوية.

ويمكننا أن نصنف المراجع اللغوية التى يستطيع المحقق أن يطرق بابها إلى خمسة أصناف:

الأول: معاجم الألفاظ، وأعلاها وأوثقها وأيسرها جميعًا، هو لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدى، الذى تضمن جميع نصوص القاموس المحيط وتكملاته.

---

(١) بغية الوعاة ١٥٧.

(١) نشر هذا الكتاب فى الهيئة المصرية العامة للكتاب محققا بواسطة الأستاذين: مصطفى السقا، والدكتور حامد عبدالمجيد. وتأليف ابن السِّيد البطليموسى وذلك فى ٣ أجزاء.

ومن معاجم الألفاظ: معاجم المفردات الطبية القديمة، كالمفردات لابن البيطار، والمعتمد لابن رسولا، وتذكرة داود الأنطاكى. ومن المعاجم الحديثة فى المفردات الحيوانية معجم الحيوان للفريق المعلوف، وفى المفردات النباتية معجم أحمد عيسى، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير الشهابى.

ومنها معاجم المصطلحات العلمية، كمفاتيح العلوم للخوارزمى، وكليات أبى البقاء. وأوسعها وأشملها جميعًا كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوى.

كما أن هناك معاجم وضعها بعض فضلاء المستشرقين، استدركوا بها على المعاجم العربية القديمة، ومنها معجم دوزى اللغوى، ومعجمه الخاص بأسماء الملابس.

وهذه المعاجم الأخيرة تفيدنا فى تحقيق النصوص الواردة فى الكتب التى كان تأليفها فى عصور متأخرة.

الثانى: معاجم المعانى، وأعلاها كما هو معروف كتاب المخصص لابن سيده، وفقه اللغة للثعالبى.

الثالث: معاجم الأسلوب، وأعلاها كتاب جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، والألفاظ الكتابية للهمذانى.

الرابع: كتب المعرَّبات، وفى قمتها قديمًا كتاب المُعْرب أو المعرَّب للجواليقى، وشفاء الغَليل للشهاب الخفاجى. وفى قمتها حديثًا: كتاب الألفاظ الفارسية المعرَّبة لأدى شير.

الخامس: معاجم اللغات التى تمتّ بصلة وثيقة إلى العربية، كالفارسية والعبرية والسريانية، واللاتينية والأسبانية.

وهذه المعاجم تعد مجالاً صحّيًّا لتحقيق الكلمات المعرَّبة التى يصيبها التحريف فى لفظها أو فى معناها، فتكون هى حَكَمًا فى تصحيح جسم الكلمة، أو تصحيح دلالتها ومعناها.

فيذكر شيخنا عبد السلام هارون قائلا:

«ولست أنسى تجربتى فى تحقيق كلمة وردت محرفة فى جميع مخطوطات كتاب الحيوان، وهى كلمة «كنعان» التى وردت فى الجزء السادس فى ص ٤٥٢ ضمن خبر ساقه الجاحظ، ونصه:

وخلا معاوية بجارية له خراسانية، فلماهمّ بها نظر إلى وصيفة فى الدار. فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج. فقال للخراسانية: ما اسم الأسد؟ - قلت: وكأنه كان يريد أن يلقّب نفسه بذلك - قالت: كنعان. فخرج وهو يقول: ما الكنعان؟ فقيل له: الكنعان: الضبع. فقال: ما لها قاتلها الله أدركتْ بثأرها».

وقد عقّب الجاحظ على ذلك بقوله: «والفُرس إذا استقبحت وجه الإنسان قالت: «روى كنعان».

فلجأت حينئذ إلى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستينجاس فى باب الكاف جميعه. انظر اللفظ الفارسى المقارب لكنعان، والذى يؤدى فى الوقت نفسه معنى الضبع. وبعد لأى شديد وتقليب كثير وترقب طويل لكلمة الضبع الإنجليزية، وهى: Hyena وجدت أن اللفظ الفارسى الذى ينطبق عليه تفسير الضبع ويقارب «كنعان» هو لفظ: «كَفتار».

وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى هذا المعجم الوثيق فى تحقيق الألفاظ الفارسية المعرَّبة، أو المشتركة، أو فى تحقيق مدلولاتها ومعانيها»[١].

السادس: ومن المراجع التى لا يستغنى المحقق عنها فى تحقيق العبارات والأساليب: المراجع النحوية. وأعلى المتداول منها وأجمعها هو كتاب «همع الهوامع شرح جمع الجوامع، كلاهما للسيوطى. وكذلك شرح ابن يعيش على مفصل الزمخشرى، وحاشية الصبان على شرح الأشمونى للألفية.

السابع: وليس يستغنى المحقق عن الرجوع إلى المراجع العلمية الخاصة بمادة الكتاب أو موادّه، وهذه تخرج عن نطاق الحصر، إذ أن لكل كتاب أو مخطوط يكون موضع التحقيق، ضروبًا شتى من المراجع التى يتطلبها.

فكتاب الأدب يحتاج إلى مراجع الأدب والتاريخ والبلدان على اختلاف ضروبها، وإلى المراجع الدينية بمختلف أنواعها، وكذلك مراجع الشعر بأنواعها من الدواوين الجاهلية والإسلامية، وكتب النقد القديم والبلاغة والعروض والقافية.

كما أن كتاب التاريخ يفتقر إلى المراجع من كتب الأدب والبلدان، وسائر ما أسلفت من أنواع المراجع؛ فإن من المعروف أن نتاج الثقافة الإسلامية متواشج الأنساب، متداخل الأسباب. وحذق المحقق وسعة اطّلاعه يهديانه بلا ريب، إلى الوقوع على المراجع التى يتطلبها الكتاب.

والذى أريد أن أقوله: إن تحقيق نصوص التراث محتاج إلى مصابرة ومثابرة، وإلى يقظة وانتباه عظيمين، وإلى سخاء فى الجهد الذى لا يضن على الكلمة الواحدة بيوم واحد، أو أيام معدودات.

* * *

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٤٩ سنة ١٩٨٤ م.

ثقافة المحقق ، والمواد المساعدة على التحقيق

وليلاحظ قبل كل شيء، أن محقق النص لا يستطيع أن يستغنى عن طائفة من العلوم المساعدة، فهو مضطر مثلا إلى الأمور الآتية:

أولا: أن يتقن (فقه اللغة) فكيف يمكن أن يكون محققا للأدب ولا يتقن لغة الأدب التى يريد أن يحققها.

وهو مضطر أيضا إلى أن يتقن علوم النحو، والصرف، والبيان، والتاريخ، وإلى أن يتقن بنوع خاص مناهج هذه العلوم كلها، ثم هو مضطر فوق هذا كله إلى أن يتقن مناهج البحث نفسها، فيعرف كيف يستكشف النص، فإذا استكشفه فكيف يقرؤه، فإذا قرأه فكيف يحققه ويضبطه.

وأيا ما كان الأمر فإن دارس المخطوطات لينشرها، أوليفيد منها باحثا، فى حاجة إلى أن يواجهها متسلحا بالثقافة الواسعة، وعلى نحو خاص بمعرفة تطور الخط العربى وألوانه عبر العصور المختلفة، فإذا كانت بعض المخطوطات قد كتبت فى لغة واضحة، فإن بعضها الآخر وصل إلينا فى رسم يعسر تبيين ملامحه إلا على خبير مقْتَدر، وإذا جاءنا بعضها سليما معافىً، فبعضها الآخر عدت عليه الأَرَضَةُ أو الرطوبة فتآكلت هوامشه وتمزق جانب منه، ويتطلب رأب صدعه وإقامة نصّه معاناةً وصبرا.

ويقتضى الأمر كذلك أن يكون المحقق مدركا لتطوُّر دلالة الألفاظ، فنحن لانستطيع فهم نص قديم فهمًا جيدا ومستقيما إلا إذا فُسِّر على أساس معانى الألفاظ والقواعد النحوية التى كانت سائدة فى العصر الذى كتب فيه.

ويجب أن يكون المحقق على معرفة بمظان البحث، واطلاع على البرامج، وكيفية الاهتداء إلى النصوص التى تتصل بالكتاب المراد تحقيقه، مع خبرة بالفن الذى يدور حوله الكتاب، حتى لا يظهر شيء مما يحققه بادى النقص مملوءًا بالتحريف.

وأى قيمة لكتاب يكون محرف الكلمات! مختل الأوزان فى الشعر، أو فاسد الضبط أو كثير الغموض؟!

ويقتضى العمل كذلك المعايشة للمخطوط الذى يراد تحقيقه، يقول كراتشكوفيسكى: «الاشتغال بدراسة المخطوطات يحمل فى ثناياه السرور والحزن معًا، شأنه فى ذلك شأن أىّ

شيء فى الحياة، إلا أن المخطوطات غيورة، فهى تطمع دائما فى أن تَسْتَحْوِذ على كل اهتمام الإنسان، وعندئذ فقط تعرض أسرارها وتكشف عن روحها، وروح أولئك الناس التى كانت مرتبطة بهم، أمّا للمتطلع العابر، فإنها تظل خرساء لاتنبئ عن شيء، وهى كأزهار (الست المستخبّية) تقفل أوراقها عندما تُلمس بدون حذر! وهى لا تفضى بشيء إلى من يتطلع إليها بنظرة موحشة ملولة! وهو بالتالى لا يرى أى شيء فيها، اللهم إلا تلك السطور المتشابهة غير الواضحة، والتى تكون عادة على ورق ردىء رخيص، يحتويها جلد بال ممزق، ولكن المتخصِّص فى دراسة المخطوطات تظهر له أفراح الأعياد أيضا، ساعة يتلألأ أمامه أىّ اكتشاف يلمع فى البداية كشرارة صغيرة، بل يظل المتخصص خائفا من أن يكتشف أن هذه الشرارة ليست إلا خداع بصر[١] هذا هو ما قاله كواتشكوفسكى، المستشرق الروسى وأحد أساطين التحقيق فى القرن العشرين.

ثم يقول: وتحقيق نسبة المخطوط إلى مؤلفه تحتاج إلى دراسة مستفيضة للمؤلف ومعايشة للنص، لأنه بالرغم من أننا نعلم جيدًا أنه فى المخطوطات تضيع منها فى الواقع أوراقها الأولى والأخيرة بصفة خاصة - وذلك تبعا لنظام خزنها فى وضع منبطح وهو المتبع فى الشرق، وليس فى وضع قائم كما هو متبع لدينا، فإن تجديد المخطوط يحمل دائما على التساؤل عن أصالته، وكثيرًا ما كان يحدث أن مالك المخطوط أو أى تاجر للآثار القديمة يقوم بتقليد بداية ونهاية المخطوط حتى يعطى له شكلا أكثر قدما، أو ينسبه إلى أى مؤلف مشهور[٢].

ولعل من الأمثلة على ذلك: أن السيوطى لم يذكر واحدٌ ممن ترجموا له كتابا فى غلطات العوام غير أن ريزتانو ذكره فى قائمته، بناء على ماذكر فى فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية، كما نشر فى مجلة معهد المخطوطات (نوفمبر سنة ١٩٥٧ ص ٢٢٠) أن فى مكتبة طلعت بدار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب أيضًا، ويصف فهرس المخطوطات المصورة النسخة تحت رقم (١٨٩) لغة بقوله: «غلطات العوام: تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ نسخة كتبت سنة ٩٨١ كبريلى ١٢٤٠، ٢٨ ورقة ١٢ × ٢٠ سم».

ومن نسخة كبريلى هذه مصورة بالمجمع اللغوى المصرى، عن معهد المخطوطات برقم ٦٩٢ وبفحص المحقق لـ«غلطات العوام» تبين له أنها نسخة أخرى من كتاب (تقويم اللسان) لابن الجوزى وقد كتب فى آخرها خطأ «قد انتهت هذه الرسالة الموضوعة فى أغلاط العوام لجلال الدين السيوطى بعد العصر من يوم السبت الحادى عشر من شهر ربيع

---

(١) كراتشكوفسكى. مع المخطوطات العربية ص ١٧٣.

(٢) كراتشكوفسكى. مع المخطوطات العربية ص ١٦٦.

الأول من شهور سنة إحدى وثمانين وتسعمائة. وبأولها فى صفحة العنوان (غلطات العوام للسيوطى) أما نسخة مكتبة طلعت فتوجد فيها برقم (٣٤٨ لغة) وتصفها البطاقات بما يلى : (أغلاط العوام للسيوطى) ضمن مجموعة فى مجلد مخطوطة بقلم تعليق معتاد. أوائل الكتب محلى باللازورد، وباقيها مجدول بالذهب والألوان، وبها تقييدات فى ١٣٥ ورقة. ومسطرتها ٢١ سطرًا فى حجم الثمن.

يقول المؤلف لكتاب (لحن العامة والتطور اللغوى) وقد فحصت هذه المجموعة فتبين لى أنها تضم أربعة كتب هى :

- درة الغواص للحريرى ١ ب - ٨٤ أ.
- تكملة درة الغواص للجواليقى ٨٤ ب - ١٠٠ ب.
- تقويم اللسان لابن الجوزى ١٠١ ب - ١٢٥ أ.

وهو - أى الكتاب - بدون عنوان وفى خاتمته ما يلى : «قد انتهت هذه الرسالة الموضوعة فى أغلاط العوام لجلال الدين السيوطى بعد العصر من يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

- التنبؤ على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا ١٢٦ ب إلى آخر الكتاب، وهو بدون عنوان كذلك، غير أن المؤلف سماه فى صفحة ١٢٧ ب، وهكذا نرى أن ما ينسب للسيوطى من أغلاط العامة ليس فى مخطوطَيْهِ إلا نسخة جديدة من كتاب «تقويم اللسان» لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ.

ولعل السبب فى نسبة هاتين النسختين خطأ إلى السيوطى أنهما ربما نقلتا عن نسخة بخط السيوطى من كتاب «تقويم اللسان» ضاع منها العنوان وأمهرها السيوطى بتوقيعه فى آخرها، فترتب على ذلك أن وهم النساخ فنسبوا ما نسخوه منها فى عامى ٩٨١هـ / ٩٨٧هـ إلى السيوطى رحمه الله تعالى فى مخطوطتى (كبريلى) و(طلعت) السابقتين.

ومن المعروف أن الجاحظ كان يؤلف الكتب وينسبها إلى غيره حتى تروج وتشتهر، فلابد للمحقق من الثقافة الواسعة بالمؤلف وبمعجمه اللغوى وبالعصر الذى كتب فيه الكتاب، حتى يستطيع أن يرد الكلمات إلى أصولها.

ولم يكن الوراقين كلهم من الثقات وأهل العلم والفضل، وإنما كان من بين المحترفين منهم من يتصف بالكذب والاختلاق، ولايلتزمون الأمانة العلمية فيما ينسخون، ولايتحرجون أن يضيفوا إلى الناس ما ليس فيهم، أو ماليس لهم، ولك أن تنظر مقدمة تحقيقنا لكتاب (الأدب فى الدين) المنسوب إلى أبى حامد الغزالى وبالمثل أيضا كتاب (نقد النثر) فقد نسبه المحققان:

الدكتور طه حسين، وعبدالحميد العبادى، إلى قدامة بن جعفر وهذا بسبب تدليس فى العنوان وقد حقق هذا الكتاب مرة ثانية وتبين أنه جزء من كتاب (البرهان فى وجوه البيان) لأبى الحسين بن وهب الكاتب. وقد نشر فى بغداد سنة ١٩٦٧م بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحريثى، ثم أعاد نشره مرة ثالثة المرحوم الدكتور حفنى شرف فى القاهرة سنة ١٩٦٩م.

وقد كان بعض الوراقين يتزيّدون، ويضيفون إلى الكتب ما ليس فيها، حتى اشتهر بعضهم بالكذب والاختلاق، ومن الكتب التى لم تسلم من عبثهم (معجم العين) الذين زادوا فيه، وأفسدوه، ومما يذكره الأصمعى (ت ٢١٥هـ) أنه أملى ببغداد كتابا فى النوادر، فزيد عليه فيه ما ليس من كلامه، وأن الكتاب عُرِض على الأصمعى، فقال : ليس هذا كلامى كله، وقد زيد فيه علىّ فإن أحببتم أن أعلِّم على ما أحفظه منه وأضرب على الباقى فعلت، وإلاّ فلاتقرءوه، قال سلمة بن عاصم : فأعلم الأصمعى على ما أنكر من الكتاب، وهو أرجح من الثلث، ثم أمر فنسخناه له»[١] وكان بعض الوراقين لايتورعون أن يختلقوا الكتب وينسبوها إلى عالم مشهور، لتروج فتعمر جيوبهم.

وهذا الجانب المعتم عند الوراقين لا يمثل إلا قطاعا صغيرا إذا قيس إلى الصورة الكبيرة المشرقة لهم.

ويبدو فى تاريخ الأدب العربى أن كتبا برمَّتها كانت تنتحل وذلك بتغيير الاسم فيحل اسم المنْتَحِل محل اسم المؤلف الحقيقى، فقد ذكر ابن النديم فى (الفهرست) أنه قرأ فى كتاب بخط ابن الجهم ما هذه حكايته.

كتاب المدخل، لسند بن علىّ وهبه لأبى معشر، فانتحله أبومعشر لأن أبا معشر تعلم النجوم على كبر، ولم يبلغ عقل أبى معشر صنعة هذا الكتاب ولا التسع المقالات فى المواليد، ولا الكتاب فى القرانات المنسوب إلى البازيار، هذا كله لسند بن على»[٢].

وللقارئ أن يستخرج من هذا النص مقدار ثقافة ابن الجهم فيرى أنه رجل ناقد ذواقة، يستطيع إعادة الكتب إلى مصادرها، ويعرف أساليب الكتاب ويحكم علمه وعقله وذوقه، وهذا هو ما يسمى عند الغربيين بنقد المصدر.

وكذلك كان تزوير الوثائق التاريخية لصالح فئات، أو لإلحاق الضرر بها فاشيًا على نطاق واسع بين الناس، وقد اعتبر علماء المسلمين أن من واجبهم أن يضعوا مبادئ وقوانين لمعرفة الصحيح من المزور. فقصة الخطيب البغدادى حين فضح الوثيقة التى مُنِحَ يهود خيبر بموجبها

---

(١) تهذيب اللغة ١ / ١٥ .

(٢) فهرست ٣٨٤ .

امتيازات خاصة، وأظهر أنها مزورة أمر مشهور، أكسب البغدادى شهرة واسعة باقية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخطيب البغدادى لم يضف بذلك شيئًا جديدًا، بل فعل ما كان يفعله العلماء المسلمون[١].

* * *

لعل بعد هذا يحق لى أن أقول: إن تحقيق التراث مسلك وعر، ومركب بعيد المنال، لا يستطيع أن يعانيه إلا من آنس فى نفسه سلامة الذوق، وصفاء النفس، وغزارة الاطلاع، ووفرة المحصول، وأن يكون بصيرًا بالأساليب العربية فى مختلف مناحيها، عارفا بموارد الكلام ومصادره، فطنا لصحيحه وفاسده، صادق الحدس فى مواضع الخطأ والنقص، كيسًا فى معالجة الأساليب المضطربة، وكشف النقاب عن الألفاظ المستعجمة، إلى جانب أن تكون له مشاركة فى الكتاب الذى يحققه، وخبرة بمصادره وأهدافه ومراميه، بعد أن يكون أمينا مخلصا حريصا على سلامة العربية مما يطرأ عليها من التحريف والتصحيف والإبهام.

وأعتقد - ويشاركنى الكثيرون رأيى هذا - أن عمل المحقق قد يكون أشق من عمل المؤلف، لأن المؤلف حرٌّ طليقٌ من كلّ قيد، يكتب ما شاء وكيفما شاء، ويعبر عن آرائه وأحاسيسه بالطريقة التى يريد، على حين أن المحقق يقف على أرض المؤلف لا يتزحزح عنها، ويضطر المحقق أن يتقمص شخصية غيره، ويعبر عن آراء سواه، ويظل رهينا فى محبس الفكرة، مقيدًا بسلاسل اللفظ والمعنى.

فمؤرخ الأدب محتاج إلى من يستكشف له النصوص ويحققها ويفسرها ويعدها للدرس والفهم، و إذا كان المؤرخ لا يستطيع أن ينهض وحده ببعض هذا العبء، فلابد من أن ينهض بهذا العبء قبله هؤلاء المحققون الذين ينفقون حياتهم فى دور الكتب، ويرون أنفسهم أسعد الناس يوم يظفرون باستكشاف نص أو تحقيقه وفهمه.

ومن واجب المرء الذى يتعرض لمهمة التحقيق أن يحيط علما بكل شىء: فلسفة، وتاريخ، وعلم أجناس، وجغرافيا، وعلوم طبيعية، ولغة، ونحو، ودلالة ألفاظ وتطورها.. إلخ، لأنه - لاشك - سوف يصادف أثناء قراءته للنصوص أشياء من هذا القبيل.

ثانيًا: من المواد التى تساعد على التحقيق: القدرة على قراءة الخطوط، فلنفرض أن لدينا «مخطوطة» فى الأدب مثلا فكيف نستفيد منها إذا كنا لا نستطيع قراءتها؟

إن الوثائق المصرية القديمة المكتوبة بالحروف الهيروغلوفية، ظلت حروفًا ميِّتةً حتى جاء شمبليون، ولذلك إذا أراد المرء القيام بالتحقيق، فمن الحكمة أن يدرس كيف يقرأ

---

١١) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى.

المخطوطات، فالذى يتعرض للتحقيق دون معايشة للخطوط القديمة وتطورها يمكن تمييزه من حين إلى آخر بارتكابه أخطاء فاحشة فى القراءة. أما المتمرسون بقراءة هذه الخطوط فقليلا ما يخطئون فى القراءة، فالقدرة على قراءة الخطوط (Paleography) من العلوم الأساسية لدراسة المخطوطات، منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث، فالمحقق يصادفه أنواع مختلفة من الخطوط، تبقى كالطلاسم حتى يتدرّب على قراءتها، ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتجنبه الوقوع فى كثير من الخطأ.

والخطوط العربية لها أشكال عدة منها: الطومار، ومنها النسخى، والرقعة، والكوفى، والفارسى، والتعليق، والنستعليق، والمغربى، والأندلسى، والسودانى والغبار، وتوجد أنواع لكل هذه الخطوط فى المخطوطات العربية، ويحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب.

ولنفرض مرة ثانية – أن المخطوطة أمكن قراءتها لكن القارى لم يفهمها، فستظل أيضًا بلا فائدة، فكثير من الأشعار الجاهلية وغيرها يمكن قراءتها، ولكن لا يمكن فهمها، فكم من الأخطاء تقع للمحقق لسوء فهمه، مع وضوحه لمن فهم، وما أكثر الأخطاء التى تقع لسوء الفهم، أو التفسير التقريبى للنصوص الصريحة من جانب محققين لا يحسنون اللغة، والدلالات اللفظية الدقيقة وتطور الألفاظ كما قلنا. إذن فعلم فقه اللغة كما ذكرنا أو ما يسمى بالفولولوجيا (Philology) من العلوم التى تساعد المحقق، بل هو من العلوم الضرورية له، إذ يتوقف فهم النصوص التاريخية والأدبية على معرفة لغة العصر التى كتبت به، لأن اللغة كما نعرف كائن حى ينمو ويتطور ويتغير تبعا لظروف الزمان والمكان، ولتغير الإنسان واختلاط الثقافات، فكم من الألفاظ اليونانية والفارسية وغيرها دخلت العربية بل ان لكل شاعر أو كاتب معجمة اللغوى الخاص به تقريبا، وبه تعرف خصائصه، وقد تدل كلمة واحدة على معان متفاوتة أو مختلفة أو متضادة[١]. ولذلك يجب على المحقق أن يعرف تطور دلالة الألفاظ، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقته، فبعض التراكيب لم يستعمل إلا فى بعض الأماكن وفى بعض العصور.

ثالثا: لنفرض أن المخطوطة مقروءة ومفهومة، فليس من التحقيق أخذها بعين الاعتبار قبل التحقّق من صحتها فى نفسها، وصحة نسبها إلى صاحبها بصورة قاطعة، وهذا هو ما يسمى بنقد المصدر.

ويحتاج المحقق فى هذه الحالة إلى الرجوع إلى أسماء الكتب التى ألفها المؤلف المنسوب إليه المخطوطة فى التراجم المعقودة له، وفى كتب التعريف بالكتب مثل فهرست ابن النديم

---

(١) انظر الدكتور إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ .

وكشف الظنون لحاجى خليفة، وفى كتب المؤلف الأخرى وفى مقدمة الكتاب نفسه. فبعض المؤلفين يذكرون عناوين كتبهم صراحة فى مقدماتها، وبعضهم الآخر يذكرها تلميحا بين مجموعة من الأسجاع الحامدة لله، أو المصلية على الرسول الكريم، أو الداعية، فإذا وجدنا عنوان الكتاب نصًا أو قريبا من النص، أو معنى، معزوًا إلى المؤلف تمت أولى خطوات التوثيق، أما إذا لم نجده فلايقطع ذلك بعدم صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف، فما أكثر ما وجدنا للمؤلفين من كتب لاتختلف فى صحة نسبتها إليهم على الرغم من عدم عثورنا على من ينسبها إليهم من الكتّاب والمؤرخين.

فلدينا خطوات أخرى للتوثيق، فنحن نستطيع عن طريق دراسة سند رواية الكتاب – إن ذكر فى المخطوط – ودراسة تراجم الرواة نستطيع معرفة العصر الذى ألف فيه، فإن لم تذكر روايته كان علينا أن نجمع أسماء الرجال المذكورين فيه، وخاصة من تدل الدلائل على أن المؤلف التقى بهم أو عاصرهم فإذا عرفنا عصرهم كان هو عصر المؤلف.

وعلم الوثائق أو علم الدبلومات (Diblomatics):

من العلوم المهمة لدراسة المخطوطات ونسبتها إلى عصرها، فينبغى أن نعرف نوع المداد فى الكتابة، والقلم الذى كتب به المخطوط، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه مثل: العلامات المائية، والألياف التى تتضح عند تعريض الورق للضوء. واليوم تستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط، والحبر، والورق، وكذلك يمكن بواسطة المجهر أو التحليل الكيمائى معرفة عمر الورق، وأحيانًا يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء، والبنفسجية، لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المغيَّرة عمدا.

وعلى المحقق أن يستوثق من تاريخ نسخ المخطوط، سواء ذكر فى آخر الكتاب، أو أوله، أو لم يذكر البتة، ونفعل ذلك بدراسة الورق والمداد والخط ومضاهاتها بما نعرف من العصور المختلفة، فإذا وجدنا مخطوطة من القرن الأول أو الثانى للإسلام مكتوبة بخط فارسى، أو نسخى عادى، فيجب الحذر من صحة نسبها. وإذا وجدنا مخطوطة فى القرن الرابع أو الخامس مكتوبة بخط كوفى قديم قد خلا من النقط والإعجام، فمن المرجح أن تكون منحولة، وعلينا أن ننظر فى اللغة التى كتبت بها، فهناك ألوان من الخصائص اللغوية، وأنواع من العبارات والمجازات لاتوجد إلا فى عصر دون عصر آخر.

وبمثل ذلك نستطيع أن نحدد عصر المخطوطة، فهناك الكثير من التعبيرات حدث فى الإسلام لم يكن لها وجود فى العصر الجاهلى، ويمكن أن نستخدم هذا المنهج فى تحديد أدب العصر الجاهلى لكن بحذر ودقة متناهية وعين فاحصة وقراءة واسعة ومعايشة للنصوص المختلفة فى هذا العصر، ذلك لأن المقياس الذى يتخذ فى هذه الحالة غالبا هو: الجزالة

وحوشية اللفظ باعتبار أن هذا هو الذى يتناسب مع الأدب الجاهلى، فيظن أن كل أثر شعرى يتسِم بالرقة وسهولة التعبير، لابد أن يكون منتحلا، ولكن هذا المنهج خطر كل الخطورة.

فليس بصحيح مطلقًا أن الشعر الجاهلى كان كله جزلا، وإنما اختلفت طبيعة الشعر فى الجزالة والرقة باختلاف بيئات الشعراء، فشعر عَدِىّ بن زيد، وشعر عَبِيد بن الأبرص، يتسم برقة لاتكاد تظفر بها حتى فى العصر العباسى فى بعض الأحيان، فلا يدلّ هذا مطلقا على أنها منحولة، وعلى العكس من ذلك نجد فى عصرنا الحديث شعرًا يمتاز بالجزالة التامة مثل شعر الشيخ عبدالمطلب، فهذه الجزالة لا تعد مطلقا على أنها من العصر الجاهلى، إنها تمتاز بالجزالة التامة ولكنها لاتنسب - كما هو واضح - إلى العصر الجاهلى.

والذى يجب أن نعتبره مقياسا دقيقا هو طبيعة التراكيب الخاصة بالشاعر ومعجمه اللغوى، وبعض الخصائص المتعلقة بحروف الجر واستعمال المجاز والأفعال، فهذه الخصائص الدقيقة الجزئية، هى التى تضع أيدينا على حقيقة العصر التى كتبت فيه، خصوصا إذا لاحظنا من ناحية أخرى أن المنتحلين قد تنبهوا إلى هذه المسألة، فكانوا أمكر من أن يكتشف انتحالهم بسهولة، فاضطروا إلى تزييف لغة الأصل، كما نجد مثلا فى الأشعار المنتحلة التى اختلقها خلف الأحمر وحماد وغيرهما، فلقد افتن هؤلاء الرواة الذين رووا هذه الأشعار فى استعارة لغة الأصل، فأغربوا ما شاءوا الإغراب كى يعفُّوا على كل أثر لاتهامهم بالانتحال! فعلينا إذن أن نكون دقيقين كل الدقة حذرين كل الحذر فى استخدام هذا المنهج، فقد سبقنا إليه علماء العربية الأقدمون، ففطنوا إلى ضرورة الدربة والممارسة عند الناقد، وفطنوا أيضًا إلى أهمية تحقيق صحة النصوص وصحة نسبتها «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم.. وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[١]».

يقول ابن سلام وهو يرد الكوفيين إلى التساهل فى الرواية والتجوّز فى القبول: «وأسمعنى بعض أهل الكوفة شعرا زعم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم، يرثى به حاجب بن زرارة. فقلت له: كيف يروى خالد مثل هذا! وهو من أهل العلم، وهذا شعر متداع خبيث؟! فقال: أخذناه من الثقات»[٢].

يقول ابن سلام تعقيبا على الخبر: «ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله» وفى موضع آخر يقول عن حسان بن ثابت: «وقد حمل عليه ما لا يحمل على أحد، لما تعاضهت قريش

---

(١) ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء ٤٠.

(٢) ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء ١٢٣.

واستتبت، ووضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تليق به»[١].

و بمثل هذا المقياس شك الدكتور محمود قاسم فى نسبة كتاب «مشكاة الأنوار» للإمام الغزالى قائلا: «مثال ذلك ما يجده المختص عند قراءة كتاب (مشكاة الأنوار) للإمام الغزالى إذ سوف يجد أسلوبا متفاوتًا! مخالفا لأسلوب الغزالى وآراء تتعارض مع نظرياته! مما دعى إلى الشك فى أن يكون الفصل الثالث من هذا الكتاب من تأليفه. ونميل نحن شخصيا إلى الشك فى نسبة الكتاب كله إليه وبخاصة أنه نسب إلى ابن المصفر السبتى أستاذ ابن عربى، فى أواخر القرن السادس الهجرى»[٢].

وعندما يتعرض الباحث للتحقيق عامة، يجد من الواجب عليه أن يتذكّرَ دوما عددا من الكتب، تهديه إلى ما يطلبه من المعرفة ومراجعها، وأهم هذه الكتب:

١ - الأعلام. للزركلى. ففيه لكل عَلَمٍ يذكره الكثير من مصادر ترجمته.
٢ - معجم المؤلفين. لعمر رضا كحالة.
٣ - مراجع تراجم شعراء العرب. لخدون الوهابى.
٤ - مصادر الدراسات الأدبية. لأسعد داغر.
٥ - الأدب العربى فى آثار الدارسين. أشرفت عليه الجامعة الأمريكية فى بيروت.
٦ - تاريخ آداب اللغة العربية. لجورجى زيدان.

ثم أهم كتابين يكتبان عن التراث العربى كله، وهما:

٧ - تاريخ الأدب العربى. لكارل بروكلمان
٨ - تاريخ التراث العربى. لفؤاد سزجين.

وقد ترجم إلى العربية بعضا منهما وجارى اليوم استكمال ترجمتهما.

ويلى هذه الكتب فى الأهمية كتب الرجال، أعنى الكتب التى تترجم للأعلام من العرب، ونستطيع أن نصنفها إلى:

(أ) الكتب العامة التى لا تقتصر على رجال عِلْم معيّن أو فن واحد. وترتب من ترجمت لهم على الألف باء، مثل:

١ - وفيات الأعيان. لابن خلكان.
٢ - فوات الوفيات. لابن شاكر.
٣ - الوافى بالوفيات. للصفدى.

---

(١) ابن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء .
(٢) الدكتور محمد قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ٤٤١ .

٤ – معجم الأدباء. لياقوت.
٥ – المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى. لابن تغرى بردى.

(ب) كتب الحوليات، أى التى تترجم للرجال، تبعا لسنوات وفاتهم، مثل:

١ – شذرات الذهب. لابن العماد.
٢ – مرآة الجنان. لليافعى.

(جـ) كتب القرون، مثل:

١ – الدور الكامنة، فى أعيان المائة الثامنة. لابن حجر، وذيله (قرن ٨)
٢ – الضوء اللامع، للسخاوى. (قرن ٩)
٣ – الكواكب السائرة ، للغوى (قرن ١٠)
٤ – خلاصة الأثر. للمحبى. (قرن ١١)
٥ – سلك الدرر. للمرادى. (قرن ١٢)
٦ – حلية البشر. لعبد الرزاق البيطار. (قرن ١٣)

(د) كتب البلدان، مثل:

١ – تاريخ دمشق. لابن عساكر.
٢ – تاريخ بغداد. للخطيب.
٣ – نفح الطيب. للمقرى.
٤ – زبدة الحلب فى تاريخ حلب. لابن العديم.
٥ – المقفى. للمقريزى.

وحتى نسهل على الباحث المحقق سبل تحقيق الكتاب سأسجل له أهم مراجعه مرتبة وفق السنوات الهجرية (وفيات أصحابها) مع العلم أن لكل فن من فنون المعرفة مراجعه، الخاصة.

وإنما سجلت المراجع المذكورة كنماذج للمراجع العامة ليهتدى بها الشادون فى فن التحقيق والله الموفق.

* * *

أهم المراجع العامة للتاريخ، والأدب، والنحو، والتصوّف، وغير ذلك، مرتبة وفق السنوات الهجرية

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١	طبقات فحول الشعراء	ابن سلام	٢٢٤ هـ
٢	الطبقات الكبرى	ابن سعد	٢٣٠ هـ
٣	البيان والتبيين	الجاحظ	٢٥٦ هـ
٤	الحيوان	الجاحظ	٢٥٦ هـ
٥	عيون الأخبار	ابن قتيبة	٢٧٦ هـ
٦	الشعر والشعراء	ابن قتيبة	٢٧٦ هـ
٧	تاريخ اليعقوبي	اليعقوبي	٢٧٨ هـ
٨	فتوح البلدان	البلاذري	٢٧٩ هـ
٩	أنساب الأشراف	البلاذري	٢٧٩ هـ
١٠	الأخبار الطوال	أبو حنيفة الدينوري	٢٨٢ هـ
١١	النبات	أبو حنيفة الدينوري	٢٨٢ هـ
١٢	طبقات الشعراء	ابن المعتز	٢٩٦ هـ
١٣	تاريخ الطبري	الطبري	٣١٠ هـ
١٤	جمهرة اللغة (معجم لغوي)	ابن دريد	٣٢١ هـ
١٥	العقد الفريد	ابن عبد ربّه	٣٢٨ هـ
١٦	الوزراء والكتاب	الجهشياري	٣٣١ هـ
١٧	كتاب الأوراق	الصولي	٣٣٥ هـ
١٨	مروج الذهب	المسعودي	٣٤٦ هـ
١٩	القضاة والولاة	الكندي	٣٥٠ هـ
٢٠	مراتب النحويين	أبو الطيب اللغوي	٣٥١ هـ

obeikandl.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
٢١	مشاهير علماء الأمصار	ابن حيان البستى	٣٥٤ هـ
٢٢	الأغانى	أبو الفرج الأصفهانى	٣٥٦ هـ
٢٣	أخبار النحويين البصريين	السيرافى	٣٥٨ هـ
٢٤	المسالك والممالك	ابن حوقل	٣٦٧ هـ
٢٥	مقدمة تهذيب اللغة	الأزهرى	٣٧٠ هـ
٢٦	المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء	الآمدى	٣٧٠ هـ
٢٧	أحسن التقاسيم	المقدسى	٣٧٥ هـ
٢٨	طبقات النحويين واللغويين	الزُّبيْدى	٣٧٩ هـ
٢٩	نشوار المحاضرة	التنوخى	٣٨٤ هـ
٣٠	نور القبس	المرزبانى	٣٨٤ هـ
٣١	معجم الشعراء	المرزبانى	٣٨٤ هـ
٣٢	الموشح	المرزبانى	٣٨٤ هـ
٣٣	أشعار النساء	المرزبانى	٣٨٤ هـ
٣٤	الفهرست	ابن النديم	٣٨٥ هـ
٣٥	تاريخ علماء الأندلس	ابن الفرضى	٤٠٣ هـ
٣٦	طبقات الصوفية	أبو عبد الرحمن السُّلمى	٤١٢ هـ
٣٧	تجارب الأمم	ابن مسكويه	٤٢١ هـ
٣٨	يتيمة الدهر	الثعالبى	٤٢٩ هـ
٣٩	المضاف والمنسوب	الثعالبى	٤٢٩ هـ
٤٠	حلية الأولياء	أبو نعيم	٤٣٠ هـ
٤١	تاريخ العلماء النحويين	القاضى التنوخى	٤٤٢ هـ
٤٢	كتاب الوزراء	هلال الصابى	٤٤٨ هـ
٤٣	طبقات الأمم	صاعد الأندلسى	٤٦٢ هـ
٤٤	الاستيعاب فى معرفة الأصحاب	ابن عبد البر	٤٦٣ هـ
٤٥	تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى	٤٦٣ هـ
٤٦	الرسالة	القشيرى	٤٦٥ هـ
٤٧	طبقات الفقهاء	الشيرازى	٤٧٦ هـ

obeikandl.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
٤٨	طبقات الصوفية	الهروى	٤٨١ هـ
٤٩	جذوة المقتبس	الحُميدى	٤٨٨ هـ
٥٠	طبقات الحنابلة	ابن أبى يعلى الفراء	٥٢٧ هـ
٥١	الذخيرة	ابن بسّام الأندلسى	٥٤٢ هـ
٥٢	ذيل تاريخ دمشق	ابن القلانسى	٥٥٥ هـ
٥٣	كتاب الأنساب	السمعانى	٥٦٢ هـ
٥٤	تاريخ الحكماء	البيهقى	٥٧٠ هـ
٥٥	تاريخ دمشق (مخطوط)	ابن عساكر	٥٧١ هـ
٥٦	نزهة الألباء فى طبقات الأدباء	ابن الأنبارى	٥٧٧ هـ
٥٧	كتاب الصلة	ابن بشكوال	٥٧٨ هـ
٥٨	طبقات فقهاء اليمن	ابن سمرة الجعدى	٥٨٦ هـ
٥٩	خريدة القصر	ابن العماد الأصفهانى	٥٩٧ هـ
٦٠	المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم	ابن الجوزى	٥٩٧ هـ
٦١	رحلة ابن جبير	ابن جبير	٦١٤ هـ
٦٢	معجم الأدباء	ياقوت	٦٢٦ هـ
٦٣	معجم البلدان	ياقوت	٦٢٦ هـ
٦٤	تذكرة الأولياء	العطار	٦٢٧ هـ
٦٥	اللباب فى تهذيب الأنساب	ابن الأثير	٦٣٠ هـ
٦٦	أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الأثير	٦٣٠ هـ
٦٧	الكامل (فى التاريخ)	ابن الأثير	٦٣٠ هـ
٦٨	إنباه الرواة على أنباه النحاة	القفطى	٦٤٦ هـ
٦٩	تاريخ الحكماء	القفطى	٦٤٦ هـ
٧٠	المحمدون من الشعراء وأشعارهم	القفطى	٦٤٦ هـ
٧١	شرح نهج البلاغة	ابن أبى الحديد	٦٥٥ هـ
٧٢	تكملة الصلة	ابن الأبار	٦٥٨ هـ
٧٣	إعتاب الكتّاب	ابن الأبار	٦٥٨ هـ
٧٤	تراجم رجال القرنين: السادس، والسابع	أبو شامة المقدسى	٦٦٥ هـ

openkandil.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
٧٥	طبقات الأطباء	ابن أبى أصيبعة	٦٦٨ هـ
	وانظر «معجم الأطباء» ذيل الكتاب السابق	لأحمد عيسى (١٣٦٥هـ)	
٧٦	تاريخ المسلمين	ابن العميد	٦٧٢ هـ
٧٧	نساء الخلفاء	ابن الساعى الخازن البغدادى	٦٧٤ هـ
٧٨	تهذيب الأسماء	النواوى	٦٧٧ هـ
٧٩	وفَيَات الأعيان	ابن خلكان	٦٨١ هـ
٨٠	الفخرى	ابن طباطبا	٧٠٩ هـ
٨١	لسان العرب	ابن منظور	٧١٩ هـ
٨٢	مختار الأغانى	ابن منظور	٧١٩ هـ
٨٣	الحوادث الجامعة	ابن القوطى	٧٢٣ هـ
٨٤	تاريخ أبى الفداء	أبو الفداء	٧٣٢ هـ
٨٥	نهاية الأرب	النويرى	٧٣٣ هـ
٨٦	تهذيب الكمال فى أسماء الرجال	المزى	٧٤٢ هـ
٨٧	إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين	عبد الباقى اليمانى	٧٤٣ هـ
٨٨	الطالع السعيد فى أسماء نجباء الصعيد	الأدفوى	٧٤٨ هـ
٨٩	تذكرة الحفاظ	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩٠	معرفة القراء الكبار	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩١	المشتبه فى أسماء الرجال	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩٢	العِبر فى خبر من غبر	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩٣	سير أعلام النبلاء	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩٤	تاريخ الإسلام	الذهبى	٧٤٨ هـ
٩٥	وفاة الوفيات	ابن شاكر	٧٦٤ هـ
٩٦	الوافى بالوفيات	الصفدى	٧٦٤ هـ
٩٧	فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبى	٧٦٤ هـ
٩٨	عيون التواريخ (مخطوط)	ابن شاكر الكتبى	٧٦٤ هـ
٩٩	ذيل تذكرة الحفاظ	الحسينى	٧٦٥ هـ
١٠٠	مرآة الجنان وعبرة اليقظان	اليافعى	٧٦٨ هـ

obeikandl.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١٠١	طبقات الشافعية	السبكى	٧٧١ هـ
١٠٢	طبقات الشافعية	الأسنوى	٧٧٢ هـ
١٠٣	البداية والنهاية	ابن كثير	٧٧٤ هـ
١٠٤	رحلة ابن بطوطة	ابن بطوطة	٧٧٧ هـ
١٠٥	الذيل على طبقات الحنابلة	ابن رجب	٧٩٥ هـ
١٠٦	الديباج المذهب فى أعيان المذهب	ابن فرحون	٧٩٩ هـ
١٠٧	مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	٨٠٨ هـ
١٠٨	الجوهر الثمين فى تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين	ابن دقماق	٨٠٩ هـ
١٠٩	الانتصار	ابن دقماق	٨٠٩ هـ
١١٠	غاية النهاية فى طبقات القراء	ابن الجزرى	٨١٧ هـ
١١١	القاموس المحيط	الفيروز بادى	٨١٧ هـ
١١٢	البلغة فى تاريخ أئمة اللغة	الفيروز بادى	٨١٧ هـ
١١٣	صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندى	٨٢١ هـ
١١٤	طبقات المعتزلة	أحمد بن يحيى المرتضى	٨٤٠ هـ
١١٥	كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك	المقريزى	٨٤٥ هـ
١١٦	كتاب الاعتبار بذكر الخطط والآثار	المقريزى	٨٤٥ هـ
١١٧	طبقات النحويين واللغويين	ابن قاضى شهبة الأسدى	٨٥١ هـ
١١٨	الإصابة فى معرفة الصحابة	ابن حجر	٨٥٢ هـ
١١٩	تهذيب التهذيب	ابن حجر	٨٥٢ هـ
١٢٠	تقريب التهذيب	ابن حجر	٨٥٢ هـ
١٢١	تبصير المنتبه بتحرير المشتبه	ابن حجر	٨٥٢ هـ
١٢٢	لسان الميزان	ابن حجر	٨٥٢ هـ
١٢٣	الدّرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة	ابن فهد القرشى	٨٧١ هـ
١٢٤	ذيل تاريخ الإسلام للذهبى	ابن تغرى بردى	٨٧٤ هـ
١٢٥	النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة	ابن تغرى بردى	٨٧٤ هـ
	المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى	ابن تغرى بردى	٨٧٤ هـ
١٢٦	الدليل الشافى على المنهل الصافى	ابن تغرى بردى	٨٧٤ هـ

obeikandl.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١٢٧	تاج التراجم فى طبقات الحنفية	ابن قطلوبجيا	٨٧٩ هـ
١٢٨	التحفة السنية فى تراجم الحنفية	ابن الجبعان	٨٨٥ هـ
١٢٩	نفحات الأنس	الجامى	٨٩٨ هـ
١٣٠	الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع	السخاوى	٩٠٢ هـ
١٣١	بغية الوعاة فى طبقا اللغويين والنحاة	السيوطى	٩١١ هـ
١٣٢	تاريخ الخلفاء	السيوطى	٩١١ هـ
١٣٣	طبقات المفسرين	السيوطى	٩١١ هـ
١٣٤	خلاصة تذهيب الكمال	الخزرجى	٩٢٣ هـ
١٣٥	طبقات المفسرين	الداودى	٩٤٥ هـ
١٣٦	مفتاح السعادة	طاش كبرى زادة	٩٦٨ هـ
١٣٧	لواقح الأنوار	الشعرانى	٩٧٣ هـ
١٣٨	طبقات الحنابلة	ابن عبد القادر	١٠٠٥ هـ
١٣٩	الطبقات الكبرى	المناوى	١٠٣١ هـ
١٤٠	نيل الابتهاج	التمبكتى	١٠٣٦ هـ
١٤١	النور السافر فى أخبار القرن العاشر	العيدروسى	١٠٣٨ هـ
١٤٢	نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب	المقّرى	١٠٤١ هـ
١٤٣	الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة	الغزى	١٠٦١ هـ
١٤٤	كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون	حاجى خليفة	١٠٦٧ هـ
١٤٥	شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلى	١٠٨٩ هـ
١٤٦	خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر	المحبى	١١١٠ هـ
١٤٧	تاج العروس	الزَّبِيدى	١٢٠٥ هـ
١٤٨	روضات الجنات	الخوانسارى	١٣١٣ هـ
١٤٩	ذيل كشف الظنون	إسماعيل باشا البغدادى	١٣٣٩ هـ
١٥٠	هدية العارفين فى أسماء المؤلفين	اسماعيل باشا البغدادى	١٣٣٩ هـ
١٥١	معجم الأطباء (ذيل على طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة)	أحمد عيسى	١٣٦٥ هـ
١٥٢	أعيان الشيعة	محسن بن عبدالكريم الدمشقى	١٣٧١ هـ
١٥٣	المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية بالقاهرة	١٣٨٠ هـ

obeikandl.com

رقم	اسم الكتاب	المؤلف	سنة وفاته
١٥٤	الأعـلام	خير الدين الزركلى	١٣٩٠هـ
١٥٥	معجم المؤلفين (تراجم مؤلفى الكتب العربية)	عمر رضا كحالة	—
١٥٦	معجم قبائل العرب	عمر رضا كحالة	—
١٥٧	أعـلام النســاء	عمر رضا كحالة	—
١٥٨	معجم المؤلفين العراقيين من سنة ١٨٠٠-١٩٦٩م	كوركيس عواد	—
١٥٩	الفتح المبين فى طبقات الأصوليين	محمد عبدالله مصطفى المراغى	—

* * *

obeikandl.com

التَّصحيف والتحْرِيف

يتحتّم على من ينصِّب نفسه لمهمة التحقيق أن يكون ذا دراية كاملة بالتصحيف والتحريف، وأن يكون فطنا لمواقع التصحيف، يستطيع أن يرد الأمور إلى نصابها، وأن يصيب قول المؤلف، ففنّ التصحيف والتحريف فن عظيم، لا يتقنه إلا الحفاظ الحاذقون، وفيه حكْمٌ على كثير من العلماء بالخطأ، ولذلك كان من الخطر أن يقدِم عليه من ليس له بأهل.

يقول النواوى عنه : «هو فن جميل، وإنما يحققه الحذّاق، والدارقطنى منهم، وله فيه تصنيف مفيد».

والتصحيف يكون تصحيف لفظ وتصحيف بصر، فى الإسناد والمتن، فمن الإسناد: (العوام بن مراجم) بالراء والجيم، صحفه ابن معين فقاله بالزاى والحاء. ومن الثانى: حديث زيد بن ثابت؛ «إن النبى ﷺ احتجر فى المسجد»، أى اتخذ حجرة من حصير ونحوه يصلى فيها، صحفه ابن لهيعة فقال: «احتجم» وحديث: «من صام رمضان وأتبعه ستًّا». صحفه الصولى فقال: «شيئا بالمعجمة»[1].

والتصحيف والتحريف:

لفظتان بينهما رباط قوّى، فقد جمعهما العلماء كثيرًا، عنوانا لمؤلف واحد، كما فعل أبو أحمد العسكرى فى كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) وكما فعل الصفدى بعده فى كتابه (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف).

وقد عنى بمعرفة التصحيف والتحريف جهابذة العلماء، وخاصة حفاظ الحديث، وجامعو اللغة والدواوين، وأكْبَر القومُ من يحذقه واعتبروه حَكَمًا على غيره، وعدّوه من جملة نقّاد عصره.

وكان المتقدّمون من رجال الحديث لا يفرقون بين المصحّف والمحرف، فكلاهما يقع فيه الخطأ، لأنه مأخوذ عن الصحف. وقد شرح التهانوى فى كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) المراد بهما فى مكان واحد.

والصلة التى بين اللفظتين – مع التجاوز عما فيهما من جناس لفظى – أن مجال البحث فيهما – كما فهمه المتقدمون من العلماء – واحد، وهو يدور فى البحث عن الخطأ، ومصدر هذا الخطأ الذى يحدث فى نطق أو كتابة الكلمة العربية، نتيجة الخطأ الإملائى فى قراءة الحروف

---

(١) التقريب والتيسير: ٣٨٤ – ٣٨٥.

المكتوبة، سواء كان هذا الخطأ فى نقط الحروف أو شكلها، أو تبادلها الأمكنة. فالتصحيف والتحريف مظهران للخطأ فى قراءة الخط المكتوب، أو اللفظ المسموع.

فهناك تحريف قراءة، وتحريف سماع، أو تحريف بصر وتحريف سمع، ويترتب على تحريف البصر قراءة كلمة جديدة قد تكون صحيحة لغة ومعنى، ولكنها غير الكلمة التى قصدها المؤلف حين كتب مؤلفه أو أملاه.

قال حمزة الأصفهانى: «أجاب أهل المعانى فى معنى التصحيف فقالوا: أن يقرأ الشىء بخلاف ما أراد كاتبه، وعلى غير ما اصطلح عليه فى تسميته»[١].

وأما لفظ (التصحيف) فإن أصله - فيما زعموا - أن قوما كانوا أخذوا العلم عن الصحف، من غير أن يلقوا فيه العلماء، فكان يقع فيما يروونه التغيير، فيقال عندها: «قد صحفوا فيه»، أى رووْه عن الصحف، ومصدره (التصحيف) ومفعوله (مُصحَّف) وأما (المصْحَف) فمأخوذ من (أصحف إصحافا) وأصله، أن الصحف جمعت فيه، فقيل : قد أصحف، ولو سمى التصحيف تغييرًا أو تبديلا جاز[٢].

وقال أبو أحمد العسكرى : «فأما معنى قولهم (الصحفىّ والتصحيف) فقد قال الخليل : إن الصحفىّ الذى يروى الخطأ عن قراءة الصحف بأشباه الحروف»[٣].

وتبعا لهذا الترادف الموجود بين اللفظين (التصحيف والتحريف) سمى العسكرى كتابه فى هذه المباحث (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) وهذا الكتاب من أجلّ المؤلفات فى بيان ما وقع فيه العلماء من تصحيف القرآن، والسنة، ولقد أراد العسكرىّ أن يخبرنا بتساوى التصحيف والتحريف فى نظره فقال : «شرحت فى كتابى هذه الألفاظ والأسماء المشْكِلةَ التى تتشابه فى صورة الخط، فيقع فيها التصحيف ويدخلها التحريف»[٤]. وقال فى موضع آخر: «أصل هذا أن قومًا كانوا أخذوا العلم عن الصحف، من غير أن يلقوا العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير»[٥].

ولهم فى الضبط طريقتان:

الأولى: ضبط القلم كأن يكتب على المفتوح فتحة، وعلى المرفوع ضمة؛ وتحت المجرور كسرة، فإذا كان فى الحرف ضبطان رسموهما، وكتبوا بحرف صغير كلمة «معا» وأمعن بعضهم فى الدقة فرسموا تحت الحاء المهملة حاء صغيرة، وتحت الدال المهملة نقطة، وتحت

(١) التنبيه على حدوث التصحيف: ٣٦
(٢) التنبيه على حدوث التصحيف: ٣٦
(٣) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: ١٣
(٤) شرح ما يقع فيه التصحيف : ٣
(٥) شرح ما يقع فيه التصحيف : ٩

السين المهملة ثلاث نقط إلى آخر هذه المصطلحات التى يعرفها من تمرس بقراءة المخطوطات وتحدثنا عنها قبل ذلك.

والثانية: ضبط العبارة، وهو أن يصف الكاتب حروف الكلمة التى هى مظنة التصحيف، بما ينفى عنها الاشتباه بأخواتها التى تتفق معها فى الرسم فيقول مثلا، فى «العَشَّ» بالعين المهملة والثاء المثلثة المفتوحة الخ،وبذلك لا تتصحف بكلمة «الغيث». وهذه الطريقة أدق ضبطا، إذ كان الضبط بالقلم عرضه للمحو أو التغيير.

ولكن المتأخرين من العلماء مالوا إلى التفرقة بين المصحف والمحرف وإن جاءت تفرقتهم لفظيّة شكلية.

فما كان فيه تغيير حرف أو حروف بتغيير النقط، مع بقاء صورة الخط، سمى (مصحفًا) مثل: الموشح والموشَّخ، وعباس وعياش، وحمزة وجمرة، والثورى والتوزى. فحديث: «من صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال» صحفه أبو بكر الصولى فقال: «شيئًا» بالشين والمعجمة والياء.

والتحريف : هو العدول بالشىء عن جهته. والتحريف قد يكون بالزيادة فى الكلام أو النقص منه، وقد يكون بتبديل بعض كلماته، وقد يكون بحمله على غير المراد منه. فهو بكل هذه التعريفات أعم من التصحيف، ومثال المحرف كحديث جابر : « رمى (أُبَيّ) يوم الأحزاب على أَكحَلِهِ فكواه رسول الله ﷺ» صحفة غندر وقال فيه (أُبِي) بالإضافة وإنما هو (أبيّ بن كعب) وأبوجابر كان قد استشهد قبل ذلك بأُحُد[١].

ويخبرنا التهانوى أنهم قالوا : مخالفة الراوى للثقات، إن كانت بتغيير الحرف أو الحروف، مع بقاء صورة الخط فى السياق، فإن كان ذلك بالنسبة إلى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفًا) وإن كان بالنسبة إلى الشكل والإعراب يسمى (محرفًا) وابن الصلاح وغيره سمى القسمين محرفًا.

وقال أبو البقاء فى كلياته[٢]: التصحيف: تغيير اللفظ والمعنى. والتحريف: تغيير اللفظ دون المعنى.

وعلى أى فالتصحيف والتحريف كلاهما وضع. حرف مكان آخر. غير أن التصحيف لايقع إلا بين الحروف المتشابهة فى الرسم الإملائى كالباء والتاء والنون والياء – أو الجيم والحاء والخاء – أو الدال والذال.. كما يقول فى (مضر): (مصر) فهو إذًا تغيير فى النقط فقط.

أما التحريف: فهو استبدال حرف بحرف آخر لا يشبهه فى رسمه مقارب له كما تقول فى

(١) علوم الحديث ومصطلحة: ٢٥٥ والباعث الحثيث: ١٧٢
(٢) كليات أبى البقاء ص١٢١

(الرجل) : (الدجل) أو بعيدًا عنه كما تقول فى (الرجل) : (الأجل) . وبعض من النساخين ينقلون الغين فاء والفاء غينا، والدال لاما، واللام دالا، وهكذا، ومثل هذه الأمور، لا تخفى على المحقق المتمرس بالخطوط القديمة.

ولكننا نلاحظ أن كلمة تصحيف لها شهرة تفوق كلمة تحريف، وربما كان ذلك لقرب دلالتها على النوع، وارتباطها بسببه الذى هو القراءة من الصحف، ولكن ما هو السَّبب أو الأسباب التى جعلت هذه الظاهرة تحدث فى الكتابة العربية؟

والإجابة عن ذلك فى عبارة مختصرة هى: الخط العربى وقابليته للتصحيف والتحريف، ذلك أن حروفه متشابهة، يميز بينها النقط الإعجامى، ورسم الحروف نفسها يقرب بعضه من بعض، فمثلا تجد محقق كتاب الأغانى يثبت قول أبى الفرج الأصفهانى: «حدثنى حمزة بن ربيعة»[١] ومحقق ثان لنفس الكتاب يقول إنما هى «حدثنى ضمرة بن ربيعة»[٢] ولكل وجهة نظره وبرهانه ومراجعه.

ولنضرب مثلا ثانيًا من نفس المرجع، يقول : محقق الجزء السابع عشر ص٢١٢ : « رحم الله معاوية إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا ! وما ابن أنثى (بأكْرم) منه، وإن كنّا لنعرفه يتفارق لنا، وما الليث (المحْربُ) بأجرأ منه ».

ثم يأتى محقق ثان فيثبتها «... وما ابن أنثى (بأمكر) منه... وما الليث (المجرِّب) بأجرأ منه» ولكل من المحقَقيْن وجهة نظره وحدسه وثقافته التى يبرهن بها على صدق نظره.

والمهم عندى أن أثبت أن الخط العربى فى أصل وضعه كان أهم أسباب التصحيف والتحريف، والأمثلة كثيرة جدًا يمكن للمتأمل أدنى تأمُّل أن يلحظها، فمثلا: جابر، حائر، جاء بَرٍّ.. نؤابه، ذَوّابة.. وحبّذا، جيدا.. وغُمَيرْ، تَمَيّز، بِمَيْر.. وقَلْبٌ،قَلَبَ، قُلّب.. ونَجيب، نُجَيْب، تَجَيَّب، بحيْثُ، بجيب، نحيبُ، تحنًّ، يجتث[٣] وكل ذلك سببه قرب رسم الحروف بعضها من بعض. عند المقارنة بين الجزء السابع عشر، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، وما يقابله فى نشر دار الشعب، هذا فضلا عما ملئت به بطون الكتب من الأمثلة التى لا تحتاج إلى مقارنة ولا إلى تأمل[٤].

---

(١) الأغانى: جـ ١٧: ٣٦٠ ط الهيئة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١

(٢) الأغانى: جـ ١٧: ٦٦٩٠ ط الشعب سنة ١٩٧١

(٣) انظر تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ٢٧ ومابعدها للصفدى بتحقيق الدكتور سيد الشرقاوى

(٤) تناول هذه الظاهرة من المعاصرين الأستاذ الدكتور محمد نبيه حجاب فى مجلة كلية دار العلوم العدد الثالث سنة ١٩٧١، فليرجع إليها من أراد الاستزادة

obeikandl.com

والذى يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط فى التصحيف، حدوث كلمات جديدة ذات معنى يخالف معنى النص أصلا وقد تكون الكلمات المحدثة من التصحيف لا معنى لها إطلاقًا، وإنما هى هراء لَغوىّ لا يفيد شيئا. قال الجاحظ: «مررت بمعلّم وهو يلقّن صبيًّا:

يَـا أبـا الفَيَّـاشِ جَثّى ... أخْـرَجَ الفِتْيَـانَ غَثّـا

لَـيْشَ فى الأرْضِ أيـاسٌ ... شَـرِنُـوا أيْلَحَ مَـثّـا

فقلت (أى الجاحظ) : بالعبرانية هذا ؟ قال : لا. هو بالعربية فلما تـأملته إذا هـو مكتوب :

يـا أبـا العـبّـاس حُبِّى ... أخـرجَ الفِتْـيـانَ عنًّـا

لـيْسَ فى الأرض أنَـاسٌ ... شـرَبُـوا أمـلَحَ مِـنّـا

فقلت : أيها المعلم، إنك ضائع بهذا البلد ! قال : نعم، قذور ومرازيق[١].

فتغيير نقط حروف الكلمات أنتج كلمات لا معنى لها، حتى ظنها الجاحظ كلاما بالعبرانية، وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا : أيها المعلم إنك ضائع بهذا البلد.

والأصل فى التصحيف: أن يكون من أخطاء النظر فى الصحف كما رأينا، ومنه كانت تسميته. ولكن منه نوعا يسمى تصحيف سمع: وهو أن يكون الاسم واللقب، أو الاسم واسم الأب على وزن اسم آخر ولقب، أو اسم آخر واسم أبيه. والحروف مختلفة شكلا ونقطا، فيشتبه ذلك على السمع كحديث (عاصم الأحول) رواه بعضهم فقال: «عاصم الأحدب» قال ابن الصلاح: «فذكر الدارقطنى أنه من تصحيف السمع لا من تصحيف البصر، كأنه ذهب – والله أعلم – إلى أن ذلك مما لا يشتبه من حيث الكتابة، وإنما أخطأ فيه سمع من رواه»[٢].

وكثرة وقوع التصحيف فى أسماء الرواة ورجال السند، حملت النقاد على العناية بالمتشابه من هذه الأسماء، بل جاوزه إلى معرفة المتشابه فى قبائل الرواة وبلدانهم وكناهم وصنائعهم، وإلى معرفة من له أسماء متعددة، ومن اشتهر بالاسم دون الكنية، والمؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب والأنساب، وصنعوا فى ذلك كتبًا كثيرة طبع بعضها ولايزال الكثير منها مخطوطا، يقول ابن كثير عند حديثه عن ما يجب أن يعرف من أوطان الرواة وبلدانهم:

---

(١) محاضرات الأدباء: ١/٦٣

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح: ٢٣٣ وانظر الباعث الحثيث : ١٧١

obeikandi.com

«وهو مما يعتنى به كثير من علماء الحديث، وربما ترتب عليه فوائد مهمة منها: معرفة شيخ الراوى، فربما اشتبه بغيره، فإذا عرفنا بلده تعين بلديه غالبا، وهذا مهم جليل، وقد كانت العرب إنما ينسبون إلى القبائل والعمائر والعشائر والبيوت، والعجم إلى شعبها ورساتيقها وبلدانها، وبنو إسرائيل إلى أسباطها، فلما جاء الإسلام وانتشر الناس فى الأقاليم نسبوا إليها أو إلى مدنها أو قراها»(١).

والتصحيف فى جميع صوره غالبا ما يغير المعنى ويشوه الحقائق. صوّب محقق الأغانى طبعة الهيئة نص أبى الفرج على النحو التالى: «إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ من رجل سوما على فرس، فحمل عليه رجلا، فعطب الفرس فقال عمر: اجعل بينى وبينك رجلا فقال الرجل..»(٢). والنص فى طبعة الشعب: «.. فحمل عليه رَحْلا فعطب الفرس ..»

ومن القصص الطريفة فى التصحيف ما حكاه ابن النديم رواية عن أبى الحسن الراوندى قال ابن الراوندى: «مررت بشيخ جالس وبيده مصحف وهو يقرأ (ولله ميزاب السموات والأرض) فقلت: وما معنى ميزاب السموات والأرض؟! قال: هذا المطر الذى ترى. فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان مثلك يقرأ. ما هكذا إنما هو ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فقال: اللهم غفرا أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهى فى مصحفى هكذا»(٣).

وقال الأخفش أنشدت أبا عمرو بن العلاء:

قالت قُتَيلةُ مَا لَه ... قَدْ جَلَّلَتْ شيبًا شُوَاتَه؟!

فقال أبو عمرو: كبرت عليك رأس الراء فظننها واوا. فقلت: وما سراته؟ قال سراة البيت ظهره، قال الأخفش: ما هو إلا (شواته) ولكنه لم يسمعها(٤).

وفى كتاب (الشعر والشعراء)، قصيدة لحميد بن ثور الهلالى فى وصف ذئب وامرأة:

تَرى ربَّةُ البَهْمِ الفِرَارَ عَشِيَّةً ... إذَا مَا عَدا فى بَهْمِهَا وهَو ضَائِعُ

رأتْه فَشكَّتْ وهوَ أكْحَل مَائِلٌ ... إلى الأَرْضِ مَثْنِيٌّ إليْهِ الأكَارِعُ

هكذا جاء فى الطبعتين (دى غويه والشيخ شاكر) (أكحل مائل) وهو خطأ وصحة التحريف:

---

(١) اختصار علوم الحديث: ٢٤٨

(٢) جـ ١٧: ٢١٧

(٣) ملحق الفهرست: ٥

(٤) المزهر: ٢/٣٦٥

رأتْــهُ فشكت وهــوَ أطْحَــلَ مَــائِــلٌ إلىْ الأَرْضِ مــثْنىٌّ إلــيْــهِ الأكِــارِعُ

وكذلك جاء فى ديوان الشاعر ص ٣٧ وأمالى المرتضى ٤/١٢١، وحماسة ابن الشجرى ص٢٥٧ وفى لسان العرب (١٣ : ٤٢٤) قال ابن سيدة : « الطحلة لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد. ذئب أطحل وشاة طحلاء »[١].

ويحكى لنا شيخ العروبة طُرفًا مليحة من أنواع التصحيف منها: أن رجلا من المحدِّثين قال: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله (عن رجل) فجعل الله شيخا ولو قال (عز وَجَل) لكان صادقا، ومن ذلك الذى قال؛ (مسح وجهه من القبح) ولم يعرف أن يقرأ (زمن الفتح)، ومنه أن تلميذا قرأ على معلم: ﴿إنَّ السمواتِ والأرْض كَانَتَا رَتْقًا﴾ فقال المعلم: ويحك ! زيفًا »[٢].

* * *

وليس الأدباء أو المَحَدِّثون فقط هم الذين اهتموا وحدهم بالتصحيف، فتلاعبوا به، بل نرى رجالا عظماء فى عصور الإسلام الزاهرة عالجوا مشكلته وحاولوا حلها، فهناكَ أبوالريحان البيرونى يشكو فى كتابه (الصيدنة) خطر التصحيف فى أسماء النبات والعقاقير فى العربية، وفى سائر اللغات المحررة بحروف عربية إذا يقول: «ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة، هى تشابه صور الحروف المزدوجة واضطرارها فى التمايز إلى نقط المعجم، وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها، فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة، وذلك بالفعل عامٌ عند قومنا،تساوى به وجود الكتاب وعدمه، بل علم ما فيه وجهله»

وكذلك يروى أن حنين بن إسحاق كان يحتاط فيما يبلغه من أسماء الأدوية، ففزع من الحرف ذى اللبس إلى آخر يضعه مكانه، فمن ذلك أنه كان يكتب (الصعتر) ويقول أخاف أن يقرأ (الشعير) فيصير به الدواء داء[٣].

إذَن فطريقة الرسم العربى فى تشابه الحروف يعود إليها المسئولية الأولى عن ظاهرة التصحيف والتحريف، ومع ذلك فقد عاون على إشاعة هذه الظاهرة الورّاقون الذين تنحصر جهودهم فى احتراف الوراقة، لنسخ الكتب وبيعها للناس، ولم يكن للنساخ والوراقين غالبا علْمٌ باللغة حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة، يعتمد التمييز بينها على نقطة أو حركة أو تغيير أحد الحروف، وحينئذٍ يحدث الخلط بين ذلك فى الكتابة، وهذا نفسه معنى

(١) انظر: مقدمة الشعر والشعراء ٥١٤

(٢) الحضارة الإسلامية: ٧٢

(٣) انظر المنتقى: ١٨٠

(التصحيف والتحريف) ويشترك فى ذلك علماء اللغة أنفسهم – على قلة – فإنّ أحدهم قد يفهم الكلمة فهما خاصا يسوغه السياق له أو يسوغه هو لنفسه، ثم يقرؤها ويرويها كما فهم وإن لم يتفق ذلك الفهم مع أصلها وما قصده منها صاحبها.

فهذه الأمور الثلاثة السابقة:

١ – تشابه رسم الحروف العربية.
٢ – النُّسّاخ.
٣ – وَهْم العلماء.

يعود إليها مجتمعة مسئولية التصحيف والتحريف، وإن كان الرسم الكتابى أعظمها مسئولية فى ذلك.

قال الجاحظ عن تحريف النساخ: «لربما أراد مؤلِّفُ الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حُرّ اللفظ وشريف المعانى أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردّه إلى موضعه من اتصال الكلام... ثم يصير الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الوراق الثانى سيرة الوراق الأول، ولا يزال الكتاب تتناوله الأيدى الجانبية والأعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا»[(١)].

وقال أبو أحمد العسكرى: «الاحتراس من التّصحيف لا يدرَك إلا بعلم غزير ورواية كثيرة، وبمعرفة مقدّمات الكلام وما يصلح أن يأتى بعدها، مما يشاكلها وما يستحيل مضاهاته لها، ومقارنته بها، ويمتنع من وقوعه بعدها، وتمييز هذا مستصعب عسر»[(٢)].

هذا وقد تُحرَّف النصوص عمدا مع سبق الإصرار، وهذا ما يسمى بالتزييف، ويكون ذلك نصرة لرأى مع معرفة وجه الحق فيه، وهذا من أخطر الأمور على المحقق الذى يتصدى لنشر كتاب، يخبرنا حمزة الأصفهانى أن سيبويه صدّر كتابه بباب ضمنه أشعارا على رواياتٍ توافق ما بنى عليه الباب، ويخالفه رواة الشعر فى أكثرها، فمنه روايته لقول الشاعر:

أَلَمْ يَـأْتِيـكِ وَالأنبـاء تـنْمـى ... بِمَـا لَاقَتْ لَبُـونُ بَنِى زِيَـادِ؟

ورواه غيره «أَلَمْ يبلغكَ» وإذا روى هكذا لم يكن لسيبويه فيه حجة[(٣)].

وقال أبو أحمد العسكرى: «مما غلط فيه النحويون من الشعر ورووه موافقا لما أرادوه ماروى عن سيبويه عندما احتج به فى عطف الاسم المنصوب على المخفوض قول الشاعر:

---

(١) الحيوان: ١/٧٩.
(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٢.
(٣) التنبيه على حدوث التصحيف: ١٥٠.

مَعَـاوِىَ إِنَّنَـا بَشَـرٌ فَـأَسْجِـحْ　　فَلَسْنَـا بِـالجِبَـالِ وَلا الحَـدِيـدَا

وغلط على الشاعر! لأنَّ هذه القصيدة مشهورة، وهى مخفوضة كلها:

مَعَـاوِىَ إِنَّنَـا بَشَـر فَـأَسْجِـحْ　　فَلَسْنَـا بِـالجبـال وَلَا الْحَـدِيـدِ

أَكَلْتُم أَرَضَنَـا فَجَـرِدْ تُمُـوهَـا　　فَـهَـلْ من قـائـم أو منْ حَـصِيـد

فَـهَبْهَـا أُمَّـة هَلَكَـت ضِيَـاعَـا　　يَـزِيـدُ يَسُـومُهَـا وَأَبُـو يَـزِيـد[1]

فإرادة النحاة موافقة الباب هى السبب فى تحريف الرواية على الشعراء، وكان لبعضهم دور فى هذا التحريف، فإنهم كانوا يميلون إلى الرواية التى تتفق وغايتهم! راجحة كانت أم مرجوحة، ما دامت تخدم القضية التى تعرّضوا لها وتثبت القاعدة التى يرونها ويريدونها.

وليس تحريف النصوص خدمة للرأى مقصور على علماء اللغة فقط، بل وجدت بالصفة نفسها بين علماء الفقه، والفروع ورجال الحديث، وغيرهم.

يتلخص لنا مما سبق أن الدوافع وراء تحريف النصوص تتلخص فى الآتى:

١ - غلط الدارس فى سماع الرواية، فانحرفت لديه عن حسن نية، وهو ما يسمى بتصحيف السماع.

٢ - غلط القارئ فى رسم الحروف وهو ما يسمى تحريف القراءة.

٣ - تحريف النص نصرة لرأى، مع معرفة وجه الحق فيه.

والحديث عن التصحيف والتحريف لا ينتهى كثرة وطرافة وهو متفرق فى كتب الأدب مجموع فى مظانه، والأخبار متضافرة على أن التصحيف وقع فى القرآن مثلما وقع فى الحديث واللغة والأدب. ومن وأقدم من ألف فى التصحيف، حمزة بن الحسن الأصفهانى، المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ألف كتابا سماه: (التنبية على حدوث التصحيف) وجاء بعده أبو أحمد العسكرىّ، المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وألف فى ذلك كتابين أولها: «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف»، والثانى: «تصحيفات المحدِّثين» ولعل كتاب «التنبيهات على أغاليط الرواة» لعلىّ بن حمزة البصرى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ مما يصح أن يجعل بين كتب التصحيف والتحريف.

---

(١) شرح ما يقع التصحيف والتحريف: ٢٠٧.

الأخطاء النحوية

ويلحق بالتحريف: الأخطاء النحوية التى ارتكبها النساخ، لأنهم لم ينتبهوا إلى ما هو مكتوب فى النسخ الأصلية، فكثير ما يبدِّلون الصحيح فى الأصل بالدارج فى لغتهم، فتراهم مثلا يبدلون النصب والجزم بالرفع، والمؤنث بالمذكر، والفاء بالواو إلى غير ذلك، وقد يكثر خطؤهم فى الأعداد الحسابية، لأن العادة جرت أن ينطقوا بالأعداد طبقا للغة الدارجة ولهذا السبب فإن النسخ التى لا خطأ فيها فى الأعداد نادرة.

وبحث الخطأ النحوى يحتاج إلى ملاحظة دقيقة، فقد يكون هذا الخطأ من الناسخ، كما أنه قد يكون من المؤلف، والوصول إلى الحقيقة ليس سهلا، فيجب أن يتعرّف المحقق على شخصية المؤلف، ليرى هل من المحتمل وقوع الأخطاء النحوية منه أو لا؟ ويجب أن يقدر قيمة النسخة، فإن كانت قديمة مشكولة بعناية تامة تدل على أن كاتبها حسن الفهم، رأينا أن خطأ الكاتب فى النحو بعيد الاحتمال.

نسب صاحب القاموس إلى الفراء قوله: «والجرُّ: أصل الجبل، أو هو تصحيف للفراء، والصواب: الجراصل، كعُلابط: الجبل[1]» هذا كلام صاحب القاموس وتعقبه شارحه صاحب التاج فقال: «والعجب من المصنف، حيث لم يذكر «الجراصل» فى كتابه هذا ولا تعرض له أحد من أئمة الغريب، فإذن لا تصحيف كما لا يخفى[2]».

والمقابلة بين النسخ غير المتناسبة، أى التى ليست من فئة واحدة، فإذا اتفقت على الخطأ عزوناه فى مثل هذه الحالة إلى المؤلف، وكذلك إذا وجدنا الخطأ مضطردًا فى كل الكتاب عزوناه إلى المؤلف أيضًا.

وهذه القواعد كلها احتمالية، فإذا وجدنا النسخ غير متفقة فى الخطأ كان هناك احتمالان: إما أن يكون الخطأ ليس من المؤلف، وإما أن يكون من المؤلف وانتبه إليه بعض النساخ فأصلحه، ولا يمكن نسبة الخطأ إلى المؤلف إلا إذا وقعنا على النسخة الخطية التى كتبها بيده.

والعبارات المعتلة التى تحمل الخطأ النحوى مرجوحة، أجدر بالإثبات منها عبارة النسخة التى لا تحمل هذا الخطأ، كما أن التى تحمل الخطأ اللغوى أو يستحيل معها المعنى أو ينعكس

---

(١) القاموس المحيط (جرر).

(٢) تاج العروس ٣/٩٥.

أو يستغلق فهمه هى رواية مرجوحة، أحق منها بالإثبات رواية النسخة السالمة من هذه العيوب، وهذا كله فى النسخ الثانوية، أما النسخ العالية فإن المحقق حرِىّ أن يثبت ما ورد فيها على علّاته، خطأ كان أو صوابا، على أن ينبه فى الحواشى على صواب ما رآه خطأ، حرصا على أمانة الأداء.

وقديما قال النواوى: «ينبغى ألا يروى بقراءة لحّان أو مصحّف، وعلى طالب الحديث أن يتعلّم من النحو واللغة ما يسلم به من اللحن والتصحيف، وطريقه فى السلامة من التصحيف الأخذ من أفواه أهل المعرفة والتحقيق، وإذا وقع فى روايته لحن أو تحريف فقد كان ابن سيرين وابن سخبرة يرويه كما سمعه. والصواب، هو قول الأكثرين يرويه على الصواب. وأما إصلاحه فى الكتاب فجوزه بعضهم، والصواب تقريره فى الأصل على حاله، مع التضبيب عليه وبيان الصواب فى الحاشية»[١].

أما برجشتراسر فيروى قاعدة مؤداها: «أن النص الأصعب هو الصحيح» أى أننا إذا عثرنا على قراءتين إحداهما تفهم بسهولة والأخرى تفهم بصعوبة فضلنا الثانية. ويحتج بذلك على أنه لا يتصوّر أن يبدّل الناسخ شيئا مفهوما بشىء غير مفهوم، أو بشىء لا يفهم إلا بصعوبة، والمحتمل ضد ذلك. وعلى هذا يجب أن نحترز مما يسهل فهمه فكثيرا ما يختبئ الصحيح فيما مظهره غير مفهوم فعلينا إذن أن نستخرجه[٢].

* * *

(١) التقريب والتيسير: ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) انظر برجشتراسر: ٨٦.

المستَشْرقُون، وأثَرُهم فى تحقيقِ النّصوص العربيَّة

ظهرت كتب كثيرة فى البلاد العربية تتحدث عن المستشرقين وتبرز جهودهم فى مجالات الدراسات الشرقية عامة والعربية خاصة، ولكن هذه الكتب - أو ما تمكنا من الاطلاع عليه برغم قيمتها العلمية وبرغم تعدد جوانب دراستها - لا تعطينا تعريفًا ثابتًا محددًا للمستشرق! فيظل بذلك الفراغ قائمًا، وفى حاجة إلى مزيد من الجهد لنصل إلى التعريف بالمستشرق.

عرّف المفكر الألمانى المعاصر (رودى بارت)[١] الاستشراق فقال: «كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق، وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالَم الشرقى».

ولكنه يجد نفسه فى حيرة فيتساءل: ما معنى كلمة شرق؟ إن مفهوم الشرق يختلف تبعًا لاختلاف المكان والزمان، فقد تعرضت لفظة شرق فى أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير كبير فى معناها ومدلولها، وفى نهاية الأمر لا يصل بارت إلى تحديد ثابت نهائى لمفهوم كلمة شرق، ويعترف هو بذلك[٢] وإذا كان من الصعوبة وضع تحديد ثابت للشرق فإنه من العسير أيضًا تعريف المستشرق تعريفا جامعًا مانعا ! ولكن يمكننا أن نرتضى أن مفهوم الاستشراق: هو تخصيص علماء غربيين فى الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها.

إذًا فالمستشرق فى أبسط صورة: عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية.

وكلمة (مستشرق) الفعل منها: استشرق أى طلب الشرق فالسين والثاء فى هذا الفعل للطلب، وكان هؤلاء الذين يتعلمون لغة الشرق، ويدرسون علومه وحضارته، ليكون لهم علم تام بأحواله الاجتماعية والسياسية والعقلية، يطلبون بذلك أن يندمجوا فيه كل الاندماج، ليكون فهمهم له، وحديثهم عنه، وحكمهم عليه، خاليا من التخيّل، بعيدا عن التوهم، أو بمنأى عن التزيّد، والمبالغة.

والمستشرقون: جماعة من علماء الغرب - جمهورهم من الرهبان - تخصصوا فى لغات الشرق وعنوا بالبحث فيها، والسؤال الذى يفرض نفسه الآن : متى كان ذلك؟

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

ترجع بداية الاستشراق إلى القرن الثانى عشر، ففى عام ١١٤٣ م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية، وكان ذلك على أرض الأندلس، وفى هذا القرن أيضًا ظهر أول قاموس لاتينى عربى، وفى القرن الثالث عشر، والرابع عشر بذل رايمو ندوس لالوس - المولود فى ميورقه - جهودًا كبيرة لإنشاء كراسى لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم العربية، «وكان الهدف من هذه الجهود فى ذلك القرن والقرون التالية هو التبشير: وإقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحى»[١].

والمستشرقون - فى غالبيّتهم - يهود أو مسيحيون، أو ملحدون، حتى المسيحيون منهم، غير المسيحيين منا، فهم إما بُرُسْتَنْتِيّون، أو كاثوليك، وجمهرة المسحيين فى مصر من الأرثوزكس، فكيف نتوقع من الأوربى المسيحى أو اليهودى أن يصدر من القول ما يماثل قولنا. إنه لو فعل ذلك وكان صادقا لحكمنا عليه بالإسلام إن كان ما يقوله خاصا بالدين ولو فعل غير صادق لكان منافقا، ولو صحت منا العقيدة وسلم لنا المنهج العلمى، وجب علينا ألا نقبل أقوال المنافقين وإذن فالاختلاف بيننا وبين المستشرقين أمر طبيعى، لأن كلا منا ينهل من مهاد ثقافى مغاير، وليس فى هذا شىء من التعصب على الإطلاق.

وحركة الاستشراق قامت أول ما قامت فى رعاية الكنيسة الكاثولوكية، وخضعت لإشراف مباشر من كبار أحبارها، يذكر المؤرخ اللبنانى المسيحى فليب دى طرازى أنه: «راح البابوات فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر يغرون قصّادهم ورسلهم ورهبانهم بتعلّم العربية ترويجًا لخطتهم الكاثولوكية، وقرر مجمع ڤينا المنعقد فى سنة ١٣١١ م برياسة البابا إقليميس الخامس: أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية فى روما، على نفقة الحبر الأعظم، وفى باريس على نفقة الملك، وفى أكسفورد، وبولون على نفقة الرهبان، وذلك لكى يكون منهم المبشّرون والوعّاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية، وكان سفراء الفاتيكان مكلّفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية[٢]».

ومن المعروف أن النهضة الأوربية قامت فى أواخر القرن الخامس عشر؛ لتخلص الأوربيين من الاعتقادات والتقاليد البالية، والفلسفات الرثة، والرجوع إلى العلوم اليونانية والرومانية، وتلك هى النهضة الفكرية المعروفة بـ Remaissamce وفى الأدوار الأخيرة من هذه الحركة ازداد ميل القوم فى أوربا إلى معرفة الشرقيين وطرق تفكيرهم، إذ أن بين اليونان والرومان، وبين الشرق صلات دموية، وعلاقات روحية أدبية، ويصعب فهم فريق دون فهم الفريق الآخر، فجاء الانتقال من العلوم اليونانية اللاتينية إلى العلوم الشرقية

---

(١) بارت ص ٩ الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية.

(٢) دى طرازى - خزائن الكتب العربية ٢/٥٧٧ وانظر: المستشرقون لنجيب العقيقى ١/١٥٢.

سهلا طبيعيًا، ويعدون من مآثر البابا «لاون العاشر» أنه احتفل سنة ١٥١٤م بافتتاح أول مطبعة عربية فى فانو على ساحل الإدرياتيك[١].

* * *

وإذا كان الاستشراق هو اهتمام الغربيين بعلوم الشرق كما قلنا، فأعتقد أن بداية الاستشراق على هذا الأساس هى ولا شك، فتوحات العرب فى الأندلس، واستيطانهم بها حيث أنشأوا مدنيّة زاهيةً زاهرة بالمعارف والفنون، اقتبس منها الأوربيون قسطًا وافرا، فقد كانت أوربا قبل الفتوحات الإسلامية تسبح فى دياجير الظلام، وقد بددت الحضارة العربية هذه الدياجير الحالكة، وأصبح العرب أساتذة للأوربيين، إذْ كان العرب فيما بين القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين حملة مشاعل الثقافة والحضارة فى ربوع العالم أجمع، وكانت الحضارة العربية هى أساس النهضة فى أوربا، وقد كتبت إسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة فى القارة الأوربية والعصور الوسطى. يشهد بذلك الكاتب الإسبانى الكبير بلاسكوابيا فى كتابه (فى ظل الكاتدرائية) حين يتحدث عن بلاده فيقول: «فى إسبانيا لم تأت النهضة من الشمال مع الجحافل البربرية، وإنما أتت من الجنوب مع الفاتحين العرب، لقد كانت حملة حضارية أكثر مما كانت غزوا. ومن هنا أتت إلينا هذه الثقافة الشابة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة... فقد جاء من الشرق مع هؤلاء الغرباء: الحرير والقطن والبن والليمون والبرتقال والرمان، وكذلك السجاد والمنسوجات والتيل والمعادن الدمشقية والمساحيق، وبفضلهم كذلك عُرِف العدُّ العشْرى، والجبر، والكيمياء، والطب، وعلم الكون، والشعر المقفّى. إن فلاسفة اليونان بعد أن كانوا على وشك الانطواء فى النسيان قد استعادوا مكانتهم حين لازموا العربى فى فتوحاته، ولقد سيطر أرسطو على جامعة قرطبة الشهيرة»[٢].

ويذكر جارودى المعاصر: أنه قبل نهاية القرن التاسع الميلادى، ترجمت إلى العربية مؤلفات أرسطو وجالينوس وأفلاطون وبطليموس وأرشميدس، وكذلك ميكانيكا هيرون وكتاب (الأشكال القمعية) ومن سنة ٨١٣ - ٨٣٣ م وهى فترة لم تكن أوربا قد تعلمت القراءة! أنشأ المأمون فى بغداد أكاديمية ضخمة (بيت الحكمة) وأصبح بفضلها معرفة الثقافة اليونانية ميسورًا لجميع قراء القرآن، وهكذا فإن الثقافة العربية تعبر عن الوجه الأساسى لعصر النهضة الأوربية، وهو الوجه الإنسانى: أى بعث الماضى.

---

(١) انظر - دى طراز: خزائن الكتب العربية ٢/٥٧٨.

(٢) روجيه جارودى - أثر الحضارة العربية على الثقافة العالمية. مجلة الطليعة العدد ٢ سنة ١٩٧٠.

ومن الجسور التى اجتازت عليها علوم الشرق إلى الغرب: الحروب الصليبية التى تعتبر من أهم وسائل الاحتكاك الفكرى بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى، وبها تعرّف أبناء أوربا بذخائر العرب الرياضية والفلكية والطبية والفلسفية.

يقول برنال: «إن الفضل أعظم الفضل للعلماء العرب فى الحفاظ على هذا التراث وتدوينه ونقله والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد بلغوا فى ذلك شأوًا، وأنهم تفوقوا على الإغريق، إذ جعلوا العلم سهلا مستساغا فأقبل الناس على النهل منه، وكانت ميزة تفرد بها العلم العربى».

لقد أدرك الغربيون فضل العلماء العرب[١]، وكانت الجامعات الإسلامية فى الشرق معقد آمال الغربيين، وكعبة قصادهم، وكان علماء المسلمين فى تلك الجامعات يرحبون بضيوفهم وتلاميذهم، وأخذوا ينقلون هذه الدفاتر العلمية ويترجمون هذه الكتب العربية إلى اللاتينية.

تقول المستشرقة الدكتورة «سيجريد هونكة» فى كتابها (فضل العرب على أوربا) أو (شمس الله على الغرب): إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية، وأن الدَّيْن فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدًّا، وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا! وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة! اللهم إلا هذه الإشارات العابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعى البريد الذى نقل إليهم التراث اليونانى.

ويذكر المؤلف فيليب دى طرازى فى الفصل التاسع من كتابه خزائن الكتب: «أن الاستشراق قام فى بداية أمره لغاية دينية محضة، ثم توسع علماء الاستشراق فجعلوه سياسيا ولغويا معًا».

وقد مضى الكلام عن التوجيه الدينى للاستشراق كما ذكرنا عند بارت الألمانى وكما رأيناه من فعل البابوات، ولنقف عند قول طرازى «سياسيا» لنرى نصيب السياسة فى توجيه حركة الاستشراق.

* * *

رأينا أن حركة الاستشراق بدأت دينية فى أول نشأتها، وأخذت الطابع الثقافى قبل الغزو الاستعمارى، وأول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسيا قامت فى

---

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتاب حضارة العرب لجستاف لوبون، والعرب فى أوربا للدكتور الخربوطلى وبحث الدكتور فيليب حتى «دراسة المشرقيات فى أوربا». مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٢٤ يجد كثيرًا من التفاصيل التى توضح أثر الحضارة العربية على الحضارة الأوربية.

فرنسا فى سنة ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات، ولم يكن حرص ملوك فرنسا بأقل من حرص أحبار الكنيسة، على إيفاد بعثات إلى الأمصار العربية لجلب ذخائر تراثها، وكان سفراؤهم يندبون رسميا لهذا العمل السياسى، فيذكر صاحب (المستشرقون) نجيب العقيقى (جـ ١/١٥٥): أن مكتبة باريس الوطنية المنشأة سنة ١٦٥٤م تحوى ستة ملايين من الكتب والمخطوطات، منها سبعة آلاف مخطوط عربى، بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية قلما توجد فى غيرها! وقد تكوَّنت هذه المكتبة على أيدى المستشرقين الذين أوفدهم الوزير كولبر إلى الشرق، وما أرسله لها نابليون من حملته على مصر، وما ابتاعه قنصل فرنسا بالقاهرة! وهكذا تجمع للمكتبة قطع من القرآن على الرق، من القرن الثانى والثالث والرابع للهجرة.

وفى كتاب (خزائن الكتب العربية) ٢/٥٨٧ أن فى مكتبة دير الشوير بلبنان مخطوطة من كتاب وفَيَات الأعيان لابن خلكان على هامشها حاشية أثبتها (أبو النصر الخازن) الذى كان قنصلا لفرنسا فى بيروت على عهد الملك لويس الرابع عشر، وتنص الحاشية على أنه: «فى سنة ١٦٧١ م أرسل عالى الجناب، الملك لويس الرابع عشر، رسله إلى جميع بلدان الإسلام؛ لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية؛ ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هؤلاء المبعوثين»، وتفيد الحاشية أن مستشارًا للملك توجه إلى قبرص، فالشام، فمصر فإسلامبول، فبغداد، وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات[١].

* * *

وقد أدت الأطماع الأوربية الاستعمارية إلى حرص دول أوربا على اقتناء كنوز الشرق العربى والإسلامى، والكشف عن الحضارة العربية والتراث الإسلامى، فأحسنت كل دولة إلى مستشرقيها فضمَّهم ملوكُها إلى حاشيتهم أمناء أسرار، وتراجمة، وانتدبوا للعمل فى سلكى الجيش والدبلماسية إلى بلدان الشرق، وولّوهم كراسى اللغات الشرقية فى كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية، وأجزلوا عطاءهم فى الحل والترحال، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية[٢].

ومضى الاستشراق والغزو الاستعمارى فترة طويلة فى طريق واحد، فأخذ المستشرقون يقلِّبون البحث فى الآداب العربية ولغتها وتاريخها، وساعدوا على تحقيق عدد من المخطوطات التى نقلوها إلى مكتبات بلادهم أو استنسخوها على ذمة نشرها محققة، وقامت من أجل ذلك

---

(١) انظر مجلة الهلال فبراير سنة ١٩٢١ م العلوم الشرقية فى مدارس أوربا. وعدد نوفمبر سنة ١٩٢٤ م تاريخ دراسة الشرقيات فى أوربا.

(٢) المستشرقون ٣/١١٤٩.

صناعة نشر التراث العربى الإسلامى فى عدد من العواصم والمدن الكبرى فى أوربا، والمستشرق (كابانى) الذى أنفق جهده وماله فى تاريخ حركة الفتح الإسلامى سجّل فى مقدمة (حوليات الإسلام) اعترافًا صريحا بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض[١].

والبحث العلمى متى انحرف عن غايته، سواء كان هذا الانحراف لمصلحة دينية أو سياسية، أعوزته النزاهة التى هى جوهر البحث، والحرية التى هى مناط سلامته.

وقد رأينا تفسيرات بعض هؤلاء المتعصبين مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقراؤهم لتراثنا، ويفرضون لها حرية علمية، حيث يسوقون أدلة وشواهد من نصوص فى التراث انحرف بها الهوى والتعصب، فضلّوا ضلالاً بعيدًا.

ورأينا منهم من يجرد نفسه للبحث النزيه ثم يخونه الحق، أثرًا لما يسيطر على ذهنه ويسجله عقله الباطن من أفكار سابقة عن عقيدة المسلمين وتاريخهم، يعزّ عليه أن يتخلّص من احتكامها فى توجيه النصوص.

والمستشرقون ثلاثة ضروب:

١ - ضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب، وفى فهم النصوص، لكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا منها.

٢ - وضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم أو ما يسعون إليه، ولعل هذا الضرب هو الذى دفع الشرقيين من المسلمين العرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعا، لأن من المؤسف أن يسخّر هؤلاء العلم الذى يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده، أو الطعن على تراثه وعقيدته بغير الحق.

٣ - لكن فريقا ثالثا أُوتِىَ الكثير من سعة العلم والتمكُّن من العربية والإخلاص للبحث، والتحرر والإنصاف، فكانت دراساتهم مثمرة وأعمالهم مباركة، وكانوا جديرين بكل إجلال.

وفى العصر الحديث: ظهرت دوافع أخرى للاستشراق منها: الدوافع الاستعمارية والدوافع العلمية البحتة المخلصة، وانكمشت الدوافع الدينية وتضاءلت، ولكنها لم تنعدم، وكثيرا ما رأيناهم يوازنون بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم العربية والعلوم الغربية، ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية،

---

(١) تراثنا بين ماض وحاضر ٥٤.

وبالتالى إلى إبراز نواحى النشاط الثقافى للغرب، وتفضيلها على أمثالها فى تاريخ العرب وآدابهم.

فمثلا عندما تناولوا تصحيح النصوص (وهو ما يعرف الآن بتحقيق النصوص) رأينا من يقول: إن هذا منهج اتبعوه فى نشر آدابهم القديمة، ثم انتقل إلى العرب بعد ذلك ! وإننا لا ننكر أن هذا المنهج اتبعوه فى نشر تراثهم، لكن الذى ننكره أننا أخذنا هذا عنهم ! فهذا المنهج عندنا كما سبق أن رأينا بالتفصيل منذ العصور الأولى للإسلام، ولكى لا أغمطهم حقهم أقول: إنهم هم الذين أخذوا هذا المنهج عن العرب، فأحيوا به تراثهم، ثم نقلوه إلينا بعد أن أفادوا به وأضافوا إليه.

أخذ الأوربيون عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية، وهاهم اليوم يعيدون إلينا شيئا مما تعلموه من أجدادنا وزادوه بعلمهم، وبارتقاء الزمن وتداول الأيام، وهذه سنة المدنيَّات التى درجت عليها أجناس البشر، والعالَم فريسة العامل، ومن كدح ربح، تقلبت على الحضارة أيد كثيرة، منذ دوِّن تاريخها، واليوم وصلت إلى هذا المظهر الباهر، ولا غضاضة على المتأخِّر إذا أخذ عن المتقدم، وما غايتهم من هذا التفاضل إلا خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص فى نفوس الشرقيين! وحَمْلِهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية العادية الغربية.

وإن الباحث ليرى أن الأطماع الاستعمارية الأوربية بدأت فى العالم العربى والإسلامى منذ مطلع التاريخ الحديث، حينما كان الشرق العربى خاضعا للحكم العثمانى، وسارت حركة الاستشراق مع هذه الحركة الاستعمارية فى طريق واحد، ولما أصاب الدولة العثمانية الضعف الشديد كانت الحملة الفرنسية على مصر والشام هى الصورة الإيجابية العسكرية لبداية الأطماع الاستعمارية فى الشرق العربى، ونستطيع أن نقول باطمئنان: إنها أيضا بداية الاستشراق القائم على دوافع استعمارية.

وكانت حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م) أولى الحملات الغربية فى التاريخ الحديث، كانت هذه الحملة مجهزة ببعثة علمية قوامها علماء أعلام فى كل ضرْبٍ من ضروب ثقافة ذلك العصر منها: الأثريون، والمهندسون، والأطباء، والمؤرخون، والمستشرقون والمترجمون، اللبنانيون، والمصريون، والسوريون، من أمثال: ميخائيل صباغ (١٧٨٠-١٨١٦) الذى اتصل بالمستشرق دى ساسى والمبتشرق كاترمير وعمل فى المكتبة الوطنية بباريس، وإلياس بقطر من مصر (١٧٤٨-١٨٢١) أستاذ العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ونقولا الترك، ورفائيل زخور المولود فى القاهرة من أصل حلبى، وقد علّم

العربية فى باريس، ثم جعله محمد على مديرًا لمطبعة بولاق فمترجما فى مدرسة الطب، وكان العضو الشرقى الوحيد فى المجمع العلمى المصرى.

قَدِمَ هؤلاء الفرنسيون مزودين بمدنيَّتهم الحديثة، وتقابلوا بهذه المدنيَّة الحديثة مع مدنية العثمانين، فكانت الغلبة للمدنية الحديثة، ومنذ ذلك الوقت أدرك العرب والمسلمون أهمية الحضارة، وأيقنوا أنه لا حياة لشعوب الشرق العربى إلا باتخاذ الوسائل الحديثة حتى نقاوم الغرب بأساليبه.

نشرت حملة نابليون بحوث علمائها، ورسومهم، وخرائطهم فى كتاب «وصف مصر» (١٨٠٩-١٨١٣) ثم حلّ شامبليون رموز الكتابة الهيروغلوفية بقراءة حجر رشيد (١٨٢٢) وألف لها أجرومية ومعجما (١٨٣٢) فوضع أساس علم الآثار المصرية، ومهَّد السبيل للعلماء، للتنقيب عن عالم عظيم مفقود.

* * *

وفى فترة حكم محمد على فى مصر توافد عدد كبير من المستشرقين، فقد رأى محمد على تدعيم الجيش المصرى من أجل تحقيق سياسة تكوين دولة واسعة يحكمها طوال حياته ويتوارث أبناؤه الحكم فيها من بعده، كما رأى أن ينشئ المعاهد والمدارس العليا، من أجل مدّ الجيش بحاجاته من الأطباء والمهندسين والمهنيِّين وغير ذلك، واعتمد على خبراء أجانب فى تدريب الجيش، وفى المعاهد والمصانع، ولذا قدِمَ إلى مصر كثير من هؤلاء الخبراء واستشرق بعضهم وعاش طوال حياته فى مصر وتأثر بالحياة الشرقية.

دخل المستشرقون بلْدَان العرب والإسلام لأغراض غير علميَّة أول الأمر كما ذكرنا، ثم استحالت حركة الاستشراق إلى أغراض عامة بعد ذلك.

ويحدد المستشرق (بارت)[١] منتصف القرن التاسع عشر موعدًا أصبح فيه الاستشراق علمًا بعد أن تخلص المستشرقون من الآراء القديمة ومن كل ألوان الانعكاس الذاتى، وبعد أن اعترفوا للشرق بكيانه الخاص وحياته الخاصة، وعند ذلك اجتهد المستشرقون فى نقل صورة موضوعية للشرق، وفهم الموضوعات الشرقية فهما موضوعيا، واستمرت جهود المستشرقين نحو تنقية الاستشراق من شوائبه الدينية والاستعمارية حتى تاريخنا المعاصر، حيث وصل الاستشراق إلى مرحلة التحول النهائى، فأصبح علما قائما على النقد «فإذا وضعنا - بقصد التبسيط - منتصف القرن التاسع عشر فإننا نعنى بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت فى هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذى قبل».

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ص ١٢.

وقد نقل المستشرقون الاهتمام بالتراث العربى إلى داخل جامعاتهم، فأنشأوا بها كراسى للغات الشرقية والأدب العربى، كما فى جامعات السربون بفرنسا، واكسفورد، وكمبردج بانجلترا، وليدن بهولندا.

والاختلاف بيننا وبين المستشرقين أمر طبيعى كما قلنا؛ لأن كل منا ينهل من منهل ثقافى مغاير وليس فى هذا شىء من التعصب على الإطلاق.

ولكن ليس هذا الذى أقوله أننى أبرئ جميع المستشرقين من آثار التعصب على الإطلاق، بل من التعصب الذى يعمى ويصم، وأقول إنهم مثلنا بشر، يحاول كثير منا ومنهم أن يخلص للمنهج العلمى. فيفلح كثيرًا ويخفق أحيانا، كما يضلل الهوى جماعات منهم ومنا أيضًا.

إذن هل يجب علينا أن نتجاهل ما يقولون ويكتبون، مادام هذا اختلاف طبيعًا ولابد منه..؟

لا.. وألف.. لا.

فمن واجب القادرين منا أن يطلعوا على هذه الأقوال؛ ليعرف ماينشر فى الغرب عنا، فإذا قدر له أن يكتب باللغات الأجنبية، سعى إلى أن يعطى الصورة التى يؤمن بصحتها، عارفا بما يناقضه ليفنده، وبما يؤازرها ليؤكده.

ومن واجب العلماء المتميزين منا، أن يطلعوا على هذه الأقوال؛ ليعرفوا الآراء المغايرة، فتثرى رؤاهم.

ومن واجب الباحثين والدارسين الاطلاع عليها والإفادة منها، مع النصح لهم بفهمها، وفهم مهادها وظروفها، ومعرفة أين، ومتى، يمكن الرجوع إليها. وإثراء البحث بها.

وليس من صالحنا فى شىء أن نهاجم دون أن ندرس، بل أن نحسن الدرس لنحسن الفهم، فنحسن التصور، فحسن الاستفادة عندما نريد الاستفادة، ويجب علينا ذاك، ونحسن النقد عندما نضطر إليه، فيقوم نقدنا على قواعد وطيدة تكسبه الصحة والبقاء.

وقد ظهر نشاط الاستشراق والمستشرقين خلال القرن التاسع عشر فى صور متعددة منها:

١ - استعانة المستشرقين بالعلماء العرب:

استعان المستشرقون كثيرًا بأهل اللسان العربى، فى تحرير نصوص التراث العربى ونشرها عندما أنشأوا بجامعاتهم كراسى للغات الشرقية والأدب العربى، ومن عجيب ما يذكر أنهم قد أنشأوا فى هذه الأقسام التى تعنى بالتراث العربى، وظيفة: «قارئ نصوص» بجانب الأساتذة والمحاضرين، وقد عمل فى هذه الجامعات بعض الأساتذة العرب، مثل

الشيخ حسن توفيق العدل، الذى تعلم فى الأزهر وتخرج فى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٨٧م، وكان معلما لِلغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين، مدة خمس سنوات، واختير أستاذا للغة العربية فى كمبردج بإنجلترا، سنة ١٩٠٣م وخلال السنوات التى لم تطل قبل موته المفاجىء ترك مؤلفات كثيرة، طبع بعضها.. ومن أهم ما تركه: «البيبادوجيا» الذى رأينا طبعته سنة ١٨٩١م وقد رأيناه فى معرض خريجى دار العلوم الذى أقيم سنة ١٩٩١م بمبنى الدار فى جامعة القاهرة وكان له فيه أيضا «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى طبع بعد وفاته بعامين سنة ١٩٠٦م وكذلك «أصول الكلمات العامية» الذى طبع سنة ١٨٩٩م، وكان حسن توفيق العدل من أعضاء الجمعية الأسيوية الملكية بلندن، ولم يكن فيها أجنبى عن الإنجليز غيره، وتوفى هناك سنة ١٩٠٤ م ثم نقل إلى مصر.

وقد بدأت الاستعانة بالخبرات العربية مبكرة، فمن أوائل من استفاد منهم المستشرقون:

رزق الله حسّون: صحافى متأدب، ولد فى حلب سنة ١٨٢٥ م وتنقلت به الأيام بين تركيا وروسيا وانجلترا، فأجاد لغاتها، وتنقل أيضا فى باريس، ولندن، ومصر؛ لجمع المخطوطات العربية واستنساخها، فكانت أساسا لمكتبته المعروفة بلندن.

الشيخ محمد عياد الطنطاوى الجوهرى : نسبة إلى المحلة الجوهرية أحد قسمى محلة مرحوم، وقد يقال له : « الطنطاوى المرحومى » نسبه إلى « محلة مرحوم » وهى إحدى البلاد الكبيرة المجاورة لمدينة طنطا، وتعتبر الآن ضاحية من ضواحى طنطا ، عاصمة محافظة الغربية .

وتعلم فى معهد طنطا الدينى، وتخرج فى مدرسة دار العلوم سنة١٨٩٣م، ودرّس فى معهد طنطا الدينى وفى مدرسة دارالعلوم، واتصل به بعض المستشرقين، فدعى لتدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية ببطرس بورج (لينجراد) من أعمال روسيا، فسافر إليها سنة ١٢٥٦ هـ واستمر يعمل بها إلى أن توفى هناك، وقد تخرج عليه بعض المستشرقين من الروس وغيرهم. وله حوالى ثلاثين مؤلفا فى النحو والفلسفة والإسلاميات.

إبراهيم عبد الفتاح طوقان: من الذين استعان بهم المستشرقون، وهو شاعر فلسطينى ولد سنة ١٩٠٥م وتوفى سنة ١٩٤١ وقد تعلم فى الجامعة الأمريكية ببيروت وبرع فى الأدبين: العربى والانجليزى.

وقد ساعد المستشرق الأمريكى لويس نيكل فى نشر النصف الأول من كتاب (الزُّهَرَة) الذى طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت سنة ١٩٣٢م على نفقة المعهد الشرقى فى جامعة شيكاغو.

وتلا هذا الجيل نفر من أفذاذ العلماء العرب، أفاد منهم المستشرقون إفادات طيبة، أذكر

منهم: أحمد زكى باشا، (شيخ العروبة) وأحمد تيمور باشا، ومحمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى بمصر. والشيخ طاهر الجزائرى، فى دمشق، وحسن حسنى عبد الوهاب، فى تونس، وابن أبى شنب، فى الجزائر، وعبد الحىّ الكتّانى، فى المغرب الأقصى.

٢ - الجمعيات الآسيوية والمعاهد الشرقية:

وهى جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون المستعمرات التى يحكمونها ومعرفة لغاتها، وتاريخها، ومن أشهرها: الجمعية الآسيوية بلندن التى أسست سنة ١٧٢٣م، والجمعية الآسيوية بفرنسا سنة ١٨٢٠ ولكل منها مجلة مشهورة تعنى بالبحوث الإسلامية والشرقية والعربية، كما تقوم بنشر الكتب العربية المخطوطة نشرًا علميًا، تعنى فيه بالتعليقات والفهارس المنظمة وترجمة لمختارات من النصوص.

وقد صار لكل من ألمانيا وإيطاليا وأمريكا جمعيات آسيوية ذات نشاط ملحوظ، وتعددت معاهد الدراسات الشرقية، ومن أشهرها: معاهد روما، وموسكو، وطشقند، ومدريد، ولندن، وباريس.

٣ - المؤتمرات:

ومن نشاط المستشرقين المؤتمرات التى تعقد فى المدن الكبرى، ويدعى إليها المستشرقون من مختلف الدول، كما يدعى إليها الأفذاذ من علماء الشرق، وتلقى فيها البحوث وتدور المناقشات، وقد كان لهذه المؤتمرات أثر واضح فى نهضة التحقيق عند العرب، إذ كان من علماء الشرق الذين حضروا هذه المؤتمرات عبد الله فكرى، وأحمد زكى، وأمين الخولى، وعائشة عبد الرحمن، وغيرهم من الأوائل الذين لهم باع فى هذا الحقل.

وقد عقد أول مؤتمر فى باريس سنة ١٨٧٣ ثم توالت المؤتمرات وصارت تعقد دوريًا كل ثلاث سنوات. وبلغ عدد الدورات ستًا وعشرين دورة عقدت كلها فى مدن أوربية ماعدا الدورة الثالثة والعشرين التى عقدت فى تركيا سنة ١٩٥٤م والدورة السادسة والعشرين التى عقدت فى نيودلهى سنة١٩٦٤م وتقرر فيها عقد الدورة التالية فى أمريكا[١].

٤ - جمع نفائس المخطوطات:

وقد عنوا بجمع المخطوطات أيام محنة المسلمين فى الأندلس وصقلية، وفى أيام الحروب الصليبية، وعندما دخلوا بلادنا فاتحين، حتى تجمع فى مكتبات الغرب ما يزيد على ربع مليون

---

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتابى السفر إلى المؤتمر لأحمد زكى ومؤتمر المستشرقين الدولى فى نيودلهى (عائشة عبد الرحمن ضمن كتاب تراثنا بين ماض وحاضر)

كتاب ! ومن أشهر هذه المكتبات : مكتبات برلين، وباريس : المكتبة الأهلية بباريس المنشأة سنة ١٦٥٤م، ومكتبة برلين التى تأسست عام ١٧٥٣م وهاتان المكتبتان أغنى مكتبات أوربا بالمخطوطات العربية، وليدن فى هولندا، والاسكوريال بإسبانيا، وروما وصقلية بإيطاليا، ولينينجراد وموسكو بالاتحاد السوفيتى وبرنستون بأمريكا[١].

ولا تنتظر منى أن أحصى اليوم ما جمعوا من تراثنا، لا لأن المجال يضيق عنه فحسب، ولكن لأن الأمر فيه يفوت العد والاحصاء، يكفى أن أذكر لكم مثلا أن فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها، كانت تملأ حتى عام ١٩٣٠ عشر مجلدات ضخمة، وأن أحد طلاب جامعة برستون القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة، من بينها ٦٠٠٠ مخطوط عربى، كانت فى حوزة واحد فحسب من مستشرقى الإنجليز، ستة آلاف مخطوط عربى.

ولا يتسع المجال لذكر أشهر المستشرقين فى كل بلد فهم كثرة، ولذا سأكتفى بذكر عدد قليل ممن ذاعت شهرتهم، وكان لهم أثر واضح فى نهضة التحقيق، وأدوا خدمات عظيمة للغة العربية وآدابها وعلومها. ومن أشهر المستشرقين الفرنسيين:

البارون دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨)م قد يسأل طالب: لماذا قدمت هذا المستشرق على سائر المستشرقين؟ فأقول: قدّمته لما لهذا المستشرق بالذات من أثر واضح فى سائر المستشرقين فى أنحاء أوربا، إذ يسميه بعضهم (أبا المستشرقين)، فالكثير منهم تتلمذ على يديه فى فنّ التحقيق والنشر، ويعد من أساتذة العربية الأول فى أوربا كلها. فقد كان واسع الاطلاع على اللغات الشرقية. تعلم اللاتينية واليونانية، ثم انقطع إلى العربية والفارسية مع علمه بالتركية والعبرية.

كان سلفستر دى ساس، بالإضافة إلى ما قام به من نشريات، يعمل مدرسا أولاً وقبل كل شىء ويرجع إليه فضل تحول باريس إلى مركز للدراسات العربية، وكعبْة يؤمّها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد، ليتعلموا على يديه.

ذهب إلية من ألمانيا على سبيل المثال لا الحصر جيوج فيلهلم فرايتاج (١٧٨٨-١٨٦١م) مؤلف المعجم العربى اللاتينى الذى لا يزال يستعمل إلى اليوم، وجوستاف فلوجل (١٨٠٢-١٨٧٠) الذى نشر القرآن ونشر فهرسا لآيات القرآن، وكتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون لحاجى خليفة وهاينرش ليبرشت فلايشر (١٨٠١-١٨٨٨). الذى أخرج طبعة دقيقة من تفسير البيضارى ما زالت تستعمل إلى يومنا هذا[٢].

تثقف دى ساسى بالأدبين، اللاتينى واليونانى، وحببت إليه العربية، فأخذ يدرسها مع

---

(١) للمستزيد أن يرجع إلى كتاب المستشرقون لنجيب العقيقى ١: ٣٤٧، ٣٥٣، ٤٤٠.

(٢) انظر الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ص ١٨

العبرية، والفارسية، والتركية! وقد أحسن من اللغات الأوربية: اللاتينية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والإنجليزية، ثم تعرف إلى يهودى يقيم فى باريس، فزاده تضلعًا من العبرية والعربية، فأكب عليهما إكبابًا هزله وأرغمه على الاكتفاء بهما.

وفى سنة ١٧٧٨م عينه الملك واحدًا من ثمانية أعضاء فى جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس الوطنية، فلما بلغ الثانية والثلاثين من عمره كان فى طليعة المستشرقين العالميين، ومن أعضاء مجمع الكتاب والآداب سنة ١٨٧٥م.

وفى سنة ١٨٢٢م ألف بمساعدة بعض مريديه الجمعية الآسيوية، وأنشأ مجلتها الشهيرة، فانتخب رئيسًا لها، وقام على رئاستها ست عشر سنة، ومات سنة١٨٣٨م بعد أن قضى حياته فى خدمة الاستشراق بالتعليم والتصنيف والتحقيق والترجمة، وتأسيس الجمعية الآسيوية وإصدار مجلتها، فعد إمام المستشرقين فى عصره، واختلف العلماء من أوربا قاطبة عليه، وأخذوا عنه، ونظموا الاستشراق فى بلدانهم على نمطه[١].

ونعرف ممن تتلمذ عليه من العرب: رفاعة الطهطاوى وميخائيل صباغ، وغيرهما، ونعرف من آثاره التى نشرها: جزءًا من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ونبذة من المواعظ والاعتبار - وكلاهما للمقريزى - ومقامات الحريرى. ونشر أيضًا الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار لعبد اللطيف البغدادى، وكليلة ودمنة، وألفية ابن مالك بشرح وتعليق سنة ١٨٣٣م.

ونعود إلى المستشرقين على وجه العموم فنذكر مع غيرنا أن الجهد الذى بذله المستشرقون فى إحياء التراث العربى جهد لا يستطاع إنكاره فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلمية التى جروا عليها.

ومع هذا فإنى أكرر القول: أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربى أصيل يتجلى فى معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأدب والتاريخ، فى دقة وأمانة ونظام بارع، ولكن المستشرقين تبنّوا إحياء هذا الفن فى هذه العصور القريبة، ونبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى على الوجه الأمثل نذكر منهم:

وستنفيلد الألمانى (١٨٠٨ - ١٨٩٩) الذى ألف وحقق نحو مئتى كتاب بين صغير وكبير[٢] وقضى عمره كله مكبًا على العربية بين مؤلف ومحقق فى لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها. ومما نشره كتاب (مختلف القبائل ومؤتلفها) سنة ١٨٥٠م عن نسخة بخط

---

(١) انظر المستشرقون ١ / ١٧٩

(٢) معجم مطبوعات سركيس النهر ١٩١٧ - ١٩١٨.

المقريزى المؤرخ، وقد أثنى على عمل وستنفيلد هذا شيخنا حمد الجاسر فى نشرته الثانية للكتاب، ونشر أيضًا المعارف لابن قتيبة سنة ١٨٥٠م.

وبيفان البولندى (١٨٥٩ - ١٩٣٤) ناشر نقائض جرير والفرزدق فى ليدن سنة (١٩٠٥-١٩٠٧م)، وتحقيقه لها وتفسيره للألفاظ التى لم ترد فى المعاجم مما يذكر له بالتقدير. ثم صنع للنقائض فهرسًا جامعًا فى ٦٣٧ صفحة وطبع فى ليدن سنة١٩٠٨-١٩١٢م.

تشارلس ليال الإنجليزى (١٨٤٥-١٩٢٠) محقق شرح المفضليات لابن الأنبارى سنة ١٩٠٨ وشرح المعلقات السبع، للتبريزى. ودواوين: عبيد بن الأبرص، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن قميئة.

جاير الألمانى (١٨٦١ - ١٩٢٩) محقق ديوان الأعشى فى عناية فائقة وتخريج مستفيض.

ونعرف من المستشرقين الإنجليز أيضًا: **مرجليوث ونيكلسون وجب.**

ومن الألمان غير من ذكرنا: **نولدكه وبروكلمان.**

ومن الهولنديين: **دوزى ١٨٨٣ ودى غويه ١٩٠٩ وجولد تسيهر ١٩٢٩.**

وجويدى الكبير وابنه جويدى الصغير: من إيطاليا.

وقد استعانت بالكثير منهم الجامعة المصرية القديمة فى التدريس، وتتلمذ عليهم كثير من كبار أدبائنا فى مقدمتهم: الدكتور طه حسين، وقام المستشرق الألمانى[1] برجشتراسر بتدريس (أصول نقد النصوص ونشر الكتب) فى كلية الآداب سنة ١٩٣١ وقد طبعت هذه المحاضرات فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٦١ بمعرفة أحد تلاميذه[2].

كراتشكوفسكى الروسى (١٨٨٣ - ١٩٥١) ولد فى فيلنا، وانتقل أبوه - وكان مديرًا لمعهد المعلمين بها - إلى طشقند وعمره سنتان، فكان أول ما تفتح عليه بصره، المساجد، والأسواق الشرقية، ثم عاد إلى مسقط رأسه فيلنا، حيث عُيّن أبوه مديرًا للمكتبة العامة ورئيسا للجنة الآثار، فدرس فى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرس بورج (ليننجراد) وفى تلك الكلية تعرف على كثير من علماء الشرق، ومنهم الشيخ محمد عياد الطنطاوى المصرى

---

(١) كتاب المستشرقون لنجيب العقيقى كفيل بأن يبين ضخامة الجهود التى قام بها هؤلاء المستشرقون وهذا الكتاب فى طبعته الأخيرة بدار المعارف يقع فى أربعة أجزاء أى فى ١٤١٤ صفحة.

(٢) جمعها الدكتور محمد حمدى البكرى وأشرف على طبعها تحت عنوان (أصول نقد النصوص ونشر الكتب) فى مركز تحقيق التراث التابع لدار الكتب، وأضاف إلى المطبوع من عنده كما حذف منه - وبذلك فهذه النشرة لا تمثل وجهة نظر برجشتراسر تماما بل هى خليط من برجشتراسر والبكرى. وأعيد نشرها مرة ثانية فى مكتبة المريخ بالرياض، بعناية الدكتور عبدالستار الجلوجى.

وبعض الأساتذة اللبنانيين. ثم أرسل فى بعثة علمية للتوسع فى دراسته العربية والتزود من المخطوطات، فأقام عامين (١٩٠٨-١٩٠٩م) فى سوريا ولبنان نذكر من أصدقائه فى لبنان الأب لويس شيخو، وفلسطين، ومصر، فزار المعاهد والمكتبات ووطد علاقات وثيقة مع كثير من العلماء العرب، نذكر من أصدقائه المصريين: أحمد باشا تيمور، وشيخ العروبة أحمد زكى باشا، وعاد من كل ذلك بزاد وفير ذكر بعضه فى كتابه: «مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس» ونشر مترجما إلى العربية عن دار التقدم بموسكو، عام ١٩٦٣م.

وقد انتخبه المجمع العلمى العربى بدمشق عضوا مراسلا سنة ١٩٢٣م وعنى بالأدب العربى قديمه وحديثه عناية بالغة، وكتب فى ذلك دراسات غزيرة جدًّا. ومن النصوص العربية التى نشرها: الأخبار الطوال، لأبى حنيفة الدينورى، سنة١٩١٢، وديوان الوأواء الدمشقى ومن أنفس دراساته كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» وقد ترجمه إلى العربية ونشر فى مصر سنة ١٩٦٣ نشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وله ما يربو على أربع مئة وخمسين أثرًا بين مؤلف ومترجم ومحقق.

ولا أستطيع أن أجلو صفحة هؤلاء المستشرقين ولكن ألفت نظر الباحث إلى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقى، وهو كتاب ضخم فى ١٤١٤ صفحة. هذا الكتاب كفيل بأن يبين ضخامة الجهود التى قام بها هؤلاء المستشرقون وقد طبع هذا الكتاب فى دار المعارف بالقاهرة أكثر من مرة.

كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦م) هو أشهر المستشرقين عند الباحث العربى عامة، وعند الباحث فى التراث العربى خاص، إذ مكن له عندهم كتابه العظيم: «تاريخ الأدب العربى» الذى يعدّ أوفى مرجع فى ذكر مكان المخطوط العربى سواء كان فى البلدان العربية أو الأوربية[١]، وقد ترجم كلّه إلى العربية بإشراف الدكتور محمود فهمى حجازى ويجرى الآن طبع هذه الترجمة فى الهيئة المصرية للكتاب، وقد جاء بعده العالم التركى فؤاد سزجين وألف كتابه العظيم «تاريخ التراث العربى» بالألمانية أيضا، وترجم فى جامعة الإمام محمد بن سعود، وقد اعتمد سزجين فى كتابه المذكور على بروكلمان وزاد عليه[٢].

نعود إلى بروكلمان فنقول: نال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة واللاهوت، وأخذ العربية واللغات السامية عن نولدكه وآخرين، وكان من أعضاء المجمع العلمى العربى بدمشق، ومجامع علمية أخرى كثيرة، وقد حرر مواد كثيرة فى دائرة المعارف الاسلامية، ونشر عيون الأخبار لابن قتيبة سنة ١٩٠٨ وغيره الكثير من الكتب.

---

(١) انظر مقدمة الجزء الأول .. ترجمة دكتور عبدالحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٦٨

(٢) انظر المقارنة بين هذين الكتابين ص ٣٠٠-٣٠١ من هذا الكتاب

برجشتراسر الألمانى (١٨٨٦-١٩٣٣) ولد وتعلم فى مدينة (ليبزج) وأخذ العربية عن فيشر، ثم قام برحلة إلى الشرق، فزار: الأناضول بتركيا، وسوريا، وفلسطين، ومصر وتوفى متردِّيًا من قمة جبل من جبال الألب، فى أثناء رحلة رياضية.

قدم مصر أستاذاً زائرًا عام ١٩٣١-١٩٣٢ وألقى فى جامعتها محاضرات فى تطور النحو العربى، ومحاضرات فى قواعد نشر النصوص العربية[١]، ومما نشره: طبقات القراء لابن الجزرى، ويسمى غاية النهاية، وقد عنى عناية خاصة بالقرآن الكريم فكانت رسالته للدكتوراه عن حروف النفى فى القرآن الكريم، ونشر فى ليبزج سنة ١٩١١م ثم كانت رسالته للأستاذية بعنوان «معجم قراء القرآن وتراجمهم».

وإلى جانب من ذكرنا لانزال نلمس صنيع المستشرقين المعاصرين فى خدمة التراث، ولعل أقرب مثال: مارأيناهُ بأعيننا فى الجامعة العربية حيث كان استقبال الدكتور سلفادور جوميز نوجاليس، أستاذ تاريخ الفلسفة الإسلامية فى جامعة مدريد بأسبانيا ورئيس جمعية الصداقة العربية الإسبانية ونائب رئيس الجمعية الدولية لفلسفة العصور الوسطى.

ويهمنا فى الموضوع أنه مدير مشروع إحياء الفلسفة الإسلامية الأندلسية الذى يشرف عليه المجلس الأعلى للبحوث بوزارة الثقافة الإسبانية التى خصصت لهذا المشروع ستة ملايين بيزيتا.

وقد استعان فى هذا المشروع بالعلماء العرب نذكر منهم: الدكتور محمود قاسم والدكتور صلاح فضل فى أثناء دراسته فى أسبانيا.

والدكتور نوجاليس المذكور يعمل منذ سنة ١٩٧٣، فى تحقيق كتاب النفس لابن رشد، وقد قام بهذه الجولة فى البلادِ العربية بحثا عما يكون هناك من مخطوطات للفيلسوف العربى ابن رشد[٢].

وجمعية المستشرقين الألمان المنشأة سنة١٨٤٥م فى هاله.. أخذت على نفسها دراسة تراث العرب، وتحقيق ونشر ذخائره، ومواصلة مباحثه فى المعاهد والجامعات، و أنشأت عدة فروع فى الشرق من أهمها: فرع الآستانة سنة١٩١٨م الذى تولى الإشرف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق ريتر، فقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة منها: مقالات الإسلاميين للأشعرى، والوافى بالوفيات للصفدى بتحقيق ريتر، والمحتسب لابن جنى بتحقيق برجشتراسر.

---

(١) وهى التى أشرنا إليها فى الهامش رقم ٢ سابقا ص١٨٩ وقلنا إنها طبعت فى مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ثم أعاد الدكتور عبد الستار الحلوجى طباعتها فى دار المريخ بالرياض .

(٢) أنظر نشرة أخبار التراث العربى (معهد المخطوطات بالجامعة العربية) للعدد ٣٣ .

ثم فرع القاهرة الذى سمى بمعهد الآثار، وكان يديره رويير الذى حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع العصر، للداودى، ثم معهد الدراسات الشرقية فى بيروت سنة١٩٦٠ومن جهوده إتمام نشر كتاب الوافى بالوفيات للصفدى، وطبقات المعتزلة بتحقيق السيدة فليتسر دى فالد من معهد استانبول، وكتاب نور القبس، المختصر من المقتبس للمرزبانى، اختصار الحافظ اليونينى بتحقيق زلهايم من جامعة فرانكفورت.

* * *

وفى القرن الماضى، عندما نشطت حركة الاستشراق رأى المستشرقون أنفسهم، أمام خضم زاخر من مخطوطات التراث العربى ملأت مكتباتهم، والتى جُمعت قبل ذلك على أيدى غيرهم، من الباحثين عن كنوز الشرق، الدارسين لعقليته وتاريخه وحضارته، هذا التراث الذى لفت أنظارهم ووجه اهتمامهم إلى ما فيه من علوم وفنون ومن أدب وحكمة، هذا التراث الذى كان يوما من الأيام درر مكتبات المشرق والمغرب العربيين مثل: بيت الحكمة ببغداد، والعزيز بالله الفاطمى بالقاهرة، والمدرسة النظامية، وخزائن كتب النجف الأشرف، وخزانة سيف الدولة بحلب، والمدرسة النورية، ومكتبة أبى الفداء بحماة، والظاهرية بدمشق، وبنى عمار بطرابلس.

وكذلك فى المغرب: مكتبة الزهراء بقرطبة، والجامع الأعظم بالقيروان، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، والحكمة بمراكش، والجامع الأعظم بمكناس.

هذا التراث الذى ملأ كل هذه المكتبات وغيرها لم يبق محفوظا بل تشتت شمله، وتفرق جمعه! وتلف بعضه على أيدى الحملات الأوربية التى أغارت على الشرق فأضاعت منه الكثير، وحملت معها ما استطاعت حمله، كما تلف بعضه على أيدى العرب أنفسهم نتيجة اختلافهم فى المذاهب والآراء، وقضى على معظمه فى الشرق (هولاكو) التترى فى حملته المشهورة على بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

وانتقل الكثير من هذا التراث الضخم إلى أوربا الظافرة التى كانت تحاول جهدها جمعه من كل أنحاء العالم العربى، الذى كان فى سبات عميق لم يفق منه إلا وقد رأى أنه باعه بثمن خس دراهم معدودة، وهكذا استطاع الغرب أن يمتلك من تراثنا أكثر مما نملك! ولعل هذا يفسر لنا السر فى ذلك الخضم الزاخر من مخطوطاتنا العربية التى نجدها ونسمع عنها فى مكتبات العالم الأوربى وغيره.

ولست أتردد أن أعلن هنا الإقرار بما لهم من فضل على تراثنا لا يجحده إلا جاهل أو مكابر، فإننا ندين لهم بجمع ذلك التراث الغالى وصونه من الضياع، ولست أدرى: ماذا كان يصيبنا من خسارة فادحة، لو لم تتجرد هذه الحملة من رجال الاستشراق، فتجوب أقطار

الشرق العربى والإسلامى باحثة عن كنوزه الثقافية المضيعة.

وتسألون : ماذا لو تركوه لنا، أما كنا أهلا لجمعه وصونه؟ فأجيبكم بملء يقينى : كلا.. فقد شاء الله أن يلتفت أولئك الأجانب الغرباء إليه تراثنا الفكرى أيام كنا فى غفلة عنه، لا نكاد نحس وجوده، أو نعرف قيمته، أو نقدر حاجتنا إليه فمضوا يجمعونه فى غفلتنا، وكان إذ ذاك أشبه بلقىً هين، وبضاعة رخيصة، لا تساوى وزنها ورق عند خدام المساجد، الذين كانوا حتى مطلع القرن العشرين، هم حراس تلكم الكنوز، ورحم الله أجدادنا. وضعوا ثروتنا الفكرية والروحية فى بيوت الله ودور العبادة، وهم يحسبون أنها هناك بمأمن من الضياع، ولم يدروا أنه سوف يأتى حين من الدهر، يؤتمن فيها خدام دور العبادة على تلك الكنوز دون رقيب، فيبيعونها بالكوم لتجار الترمس والفول واللب، كى يغلفوا فيها بضائعهم، قبل أن تكثر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة.

ذكر الكونت فيليب دى طرازى أن خادما يدعى: «ابن السليمانى» فى منتصف القرن التاسع عشر عُيِّن خازنًا لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد مصر، وجعل له ديوان الأوقاف راتبا شهريا قدره ٢٥ خمسة وعشرون قرشا، وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر، فجعل يقف فى زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن، ويضع بجانب بضاعته من لقصب، أكداسا من مخطوطات المكاتب الثلاث، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين[١].

ومما لا شك فيه أن العلوم العظيمة والحكم الغالية والخبرات الجمة التى احتوتها هذه المخطوطات، كانت أول بصيص من النور أضاء للغرب طريقه كما أسلفنا، حيث ترجمت أكثر المخطوطات العلمية، وتمثلها كثير من الباحثين، وأخذوا ما فيها من نظريات غيرت مجرى حياتهم من بداوة إلى حضارة، ومن عصور وسطى سيطرت عليهم فيها خرافات الجهل وأساطير الأوهام، إلى عصور حديثة راقية مملوءة بالعلم والعرفان!

وإذا كان تراثنا بهذه القيمة فلا عجب أن يهتم المستشرقون بجمعه وفهرسته وتقديمه إلينا محققا مدروسا، وقد يقضى المحقق عمره فى نشر كتاب واحد من هذا التراث[٢].

لكن يمكن القول بصفة عامة: أن تحقيق المستشرقين للمخطوطات العربية فيما قبل

---

(١) خزائن الكتب العربية ١٩٠٠.

(٢) استمر كراتشكوفسكى يعمل عشرين عاما فى تحقيق رسالة الملائكة لأبى العلاء المعرى.(مع المخطوطات العربية ١٢٦). وفلوجل استمر ٢٥ عاما فى جمع المخطوطات لكتاب الفهرست لابن النديم من مكتبات فينا وباريس وليون ولكنه توفى ولم يتم تحقيقه فتولاه رويدجر وأوجست هويلس فنشراه فى ٢٦٠ صفحة ليبزج سنة ١٨٧١ ثم ألحقا ذيلا فى ٢٧٩ صفحة تتضمن التفاسير والتعليقات والاستدراكات بالعربية والألمانية وختماه بفهرس للأعلام (ليبزج ١٨٧٢) ثم عثر المستشرقون على جزء ساقط منه فى ليدن، نشروه فى المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٨٩ وعن طبعة فلوجل نشر فى القاهرة سنة ١٩٣٠ انظر(نجيب العقيقى ٢/٧٠١).

القرن التاسع عشر كان متواضعا ساذجا، وأن ما تم خلاله وبعده كان جيدًا، فقد توافرت للقائمين عليه وسائل المعارضة بين النسخ المختلفة للكتاب الواحد، والثقافة الواسعة، والتمكن من العربية، فقدّموا النص وصححوا أخطاءه ووضحوا إشاراته، وضبطوا أعلامه، وألحقوا بكل كتاب فهارس فنية منوعة.

لم يقف جهدهم فى جمع المخطوطات على مجرد الاقتناء، بل فهرسوا ما جمعوه من تراثنا فهرسة علمية دقيقة تصف معالم المخطوط وتبين حظه من الأصالة، وتحقق نسبة المخطوط، وتعرف بمؤلفه وتتبع تنقله بين أيدى المالكين جيلا بعد جيل. ومن ثم انتقلوا إلى المرحلة الثانية فعكفوا على ذلكم التراث فى رهْبَنة علمية ينشرون نفائسه تباعا، نشرا يعتمد على أدق منهج التوثيق والتحقيق، وكانوا - والحق يقال - أمناء على النصوص، لا يبيح أحدهم لقلمه أن يغير كلمة، أو حرفا منه، فإذا بدا له أن يستبدل فاء بواو أثبت فى المتن رواية الأصل وجاء باللفظ المعدول إليه حاشية على الهامش مع بيان وجه العدول عن رواية المخطوط.

* * *

وصحونا من سباتنا فإذا ألوف الذخائر العربية بين أيدينا محررة موثّقة نلوذ بها فى دراساتنا العالية، ونعدُّ الرجوع إليها فى أبحاثنا المتخصصة مدعاة للفخر والمباهاة.

وحالنا فى النشر أعجب ! نقابل صنيع من اشتغلوا من العرب بنشر المخطوطات منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين بصنيع المستشرقين فتروعنا المقابلة ! فأمانتهم فى نقل النصوص يقابلها عندنا عبث بالنصوص، فيتناولها بالإضافة والحذف والتغيير ! إلى حد يهدر كل حرمة للنص كأثر تاريخى. ودقتهم فى مقابلة النسخ الخطِّية للنص، والتماس الأصالة فيها، أو التثبت من صحة نسبها، يقابله عندنا، إغفال لذكر النسخة المنقول عنها أو إخراج طبعات ملفقة مرقعة تنسب إلى المؤلف القديم دون أن يتصل به نسبها.

وبدا واضحا أن أكثر القوم هنا لم يقصدوا إلى شىء من النشر العلمى ! ولا عناهم أن يثقلوا على أنفسهم ببعض أعبائه وتبعاته، ولا أن يضبطوا أقلامهم بشىء من نظمه ومناهجه، وإنما اتخذوا النشر وسيلة ارتزاق فحسب، وجعلوا طبع المخطوطات تجارة لا مجال فيها لتقدير حرمة النصوص، أو احترام أمانة العلم.

وإليكم ما يقوله أحد المؤرخين : «عارض ما نشره العلماء الغربيون من المخطوطات العربية بما نشرناه نحن ! قابل مثلا تاريخ الطبرى طبعة مصر بتاريخ الطبرى طبعة لندن،

أو تاريخ المسعودى طبعة مصر وطبعة باريس، أو الشهر ستانى طبعة مصر بطبعة لندن فماذا تجد؟! تجد أن مطبوعاتنا لا تكاد تكون صالحة للاستعمال بالنسبة لرداءة ورقها وكثرة أغلاطها، وخلوها من الفهارس، والحواشى، والتعاليق، والملاحظات الانتقادية! فكأنما الغاية من طبعها تجارية، فقط، بخلاف الطبعات الأوربية المجمّلة فى الغالب بالمقدمات، والفهارس، والحواشى، والتدقيقات، فلا يكاد يستغنى عنها طالب[١]».

ولسنا نريد أن نجحف أحدًا من علمائنا فى ذلك الوقت حقه ولكننا نحب الحقيقة أكثر مما نحب علماءنا، أو سواهم، فقد سمعنا صرخات تتعالى بوجوب النشر العلمى خلال هذه الفترة.

وإذا عدنا إلى المقابلة بين صنيع المستشرقين وصنيع تجارنا كادت تنسينا أننا أصحاب عهد قديم بمثل تلك الدّقة المنهجية فى الرواية والأداء، فى الشعر والأخبار، قبل أن تسمع الدنيا بكلمة الاستشراق.

ونعود إلى تتبع سيرة تراثنا بين أيدى المستشرقين فنراهم بعد أن جدُّوا فى جمعه وفهرسته وتحقيقه ونشره، انتقلوا به إلى المرحلة الهامة التى من أجلها كان الجهد المبذول فعكفوا على دراسة ذلكم التراث وقد توزعوه فيما بينهم، بعد أن استعانوا على تحقيقهم بإجادة عدة لغات: شرقية وغربية فاتسمت آثارهم بالتحقيق، ودلائل المثابرة والاطلاع، بعد أن منحتهم دولهم المال والرعاية والتشجيع، ووضعت تحت أيديهم المكتبات العامرة بالبحوث والمخطوطات النادرة. يقول بارت المستشرق الألمانى: «ونحن جميعا لمتمتعين بهذه النظم ونعترف شاكرين بأن المجتمع متمثلا فى الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا العلمى فى هذا المضمار»[٢].

يذكر فيليب حتّى: أن أبناء العربية اعتادوا أن ينظروا إلى لغتهم كأنها موضوع للدرس قائم بذاته، لا علاقة له بغيره، أما علماء أوربا فينظرون إلى العربية باعتبار أنها فرع من اللغات السامية وشقيقة للعبرية، والسريانية، ولا يجيزون لأحد أن يدرسها ما لم يكن قد ضم فى دائرة اختصاصه الفيلولوجيا السامية، واللغات المجانسة للعربية المشتقة من نفس الأم التى اشتقت منها العربية[٣].

---

(١) فيلب حتى. (تاريخ دراسة المشرقيات فى أوربا) مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٢٤ ويقصد بذلك أوائل المطبوعات فى مصر.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية ص ١٢.

(٣) انظر (تاريخ دراسة المشرقيات فى أوربا). مجلة الهلال يناير سنة ١٩٥٢.

ولعله بسبب من هذا ما يلقانا فى تهميشات المستشرقين من إعادة الكلمة العربية إلى ما اشتقت منه أصلا فى القديم.

* * *

قدر المستشرقون المخطوطات العربية، فجمعوها أو ساعدوا على جمعها بهمة لا تعرف الكلل، ولئن اقتنوا بعضها بالأثمان البخسة، ومنها ما حمل حملا إليهم فى عقر دارهم، فقد طلبوها بالأسفار الطويلة والنفقات الباهظة فى مختلف الأصقاع، حتى توفر لديهم من المخطوطات العربية وحدها أعلاق نفيسة تعد أكثرها من النوادر والأمهات التى خلت منها مكتباتنا.

والمنهج العلمى الذى انتهجوه فى نشر مخطوطاتنا عصم معظم أقلامهم من الزلل، إلى حد بعيد، فأنطونى بيفان حقق نقائض جرير والفرزدق فى ١١٠٢ من الصفحات، وحين عثر على خلل فى وزن أحد أبياتها بعد نشرها اغتم له غما شديدا[١].

وعندما أخذت مطابعنا تعيد نشر الكتب التى سبق أن نشرها هؤلاء المستشرقون أغفل بعضهم أسماء المستشرقين ومقدماتهم ومعاجمهم! وشوهت شروحهم واستدراكاتهم ،كتشويه مطبعة السعادة لطبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين للجمحى بتحقيق جوزيف هل، فقد تصرفت فى نصوص المخطوطات ونسبت بعضها إلى غير صاحبه، ولن أدع قلمى يثقل عليكم بكثرة المطبوعات التى رأيناها يتجلى فيها العبث، ولكن سأعطى القلم لأحد أساتذة التحقيق الذين عانوا من هذه الطبعات وهو الدكتور طه الحاجرى محقق كتاب البخلاء للجاحظ - يرحمه الله - يقول فى مقدمته:

«لم تكد هذه النشرة التى نشرها فان فلوتن (للبخلاء) تصل إلى مصر حتى تلقفها أحد أولئك الذين يتجرون بنشر الكتب، وهو الحاج محمد الساسى المغربى، فقذف بها إلى المطبعة (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥ م). دون أن يتكلف شيئا من أوليات ما ينبغى فى نشر الكتب! فلم يحاول مراجعة المخطوط، وهو قريب منه فى دار الكتب المصرية فى مجموعة كتب الشنقيطى نسخة مخطوطة عن مخطوطة كبريلى، التى صدر عنها فان فلوتن - بل لا ملاحظة للقراءات التى أثبتها فان فلوتن فى هوامش الصفحات، أو الملاحظات والإيضاحات التى ذيل بها نشرته - وهى ملاحظات لها قيمتها - بل لم يكلف نفسه الإشارة إلى النشرة التى طبع عنها، وبذلك جاءت هذه الطبعة المصرية الأولى صورة مشوهة من النشرة الأوربية، وظاهر أنه ما كان لنا - والأسف تنفطر منه قلوبنا - أن ننتظر غير هذا فى ذلك العهد، ما دامت آثارنا العقلية ومظاهر مجدنا الأدبى قد بلغت من الهوان علينا حتى ندعها لعبث الاتجار الغفل

(١) العقيقى ١١٢٧/٣.

وأهوائه، فنرى القائمين على نشر الكثير منها، قوما هم بطبيعة تكوينهم والغاية التى تحدوهم أبعد الناس عن الروح العلمية التى يجب أن تكون صاحبة المكان الأول فى هذا العمل الخطير»[١] هذا فضلا عما رأينا فى صرخات أبى العلا عفيفى[٢] وغيره.

ولما كانت طبعات المستشرقين قد تفضل طبعات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟ فقد باشرت الآن - مكتبة المثنى ببغداد وغيرها إعادة طبع أهم منشورات المستشرقين بطريق الأفست فنيَّفت مكتبة المتنبى على مئة كتاب.

ويكتب بعض الناشرين من العرب - على قلة ما ينشرونه -: قورنت هذه النسخة بالنسخة المطبوعة فى ليدن أو غيرها من بلدان أوربا. حتى أولئك الذين لا يذكرون الاستشراق إلا بالنقمة عليه، كان لابد لهم من الرجوع إلى تحقيقات المستشرقين.

فلو لم يقدِّر لتراثنا أن تجمع الكثير منه أيدى المستشرقين، وتكشف عنه ثم ترتبه وتصونه وتفهرسه وتيسر سبل الانتفاع به لما قدِّر لكثير من مخطوطاته أن ترى ضوء الشمس، ولفقد قدر عظيم منها، وظل آخر طىّ الكتمان إلا من أسمائه فى الفهرست لابن النديم وكتب الأعلام والسِّيَر، ولعفّى النسيان على غيره مما ضاعت أصوله، ولما استطعنا تصويره - كما فعل معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية والمكتبات العامة والعلماء - وتحقيقه والتصنف فيه، ولا عرفنا قدره وأثره فى الأمم الأخرى. ولو أنهم أرادوا به شرًّا لما استنفدوا أوراقه من الضياع، بل عمدوا إلى طيه إن لم يكن عن العالم فعنا.

وقد أفادنى أحد الزملاء الذين ذهبوا إلى تركيا وإسبانيا وغيرهما من بلدان العالم، لتصوير بعض مخطوطات مكتباتها، بالحفاوة التى كانوا يقابلون بها، فى الوقت الذى لا يعبأ الكثير من أبناء العربية بالرد على استفساراتهم. وكانت لى شخصيا تجربة معهم عندما رغبت ى نشر كتاب «رسالة فى علم الموسيقا» فكتبت إلى مكتبة برلين لترسل إلىّ النسخة الوحيدة فى العالم وكانت مُعْتَمَدى، ولتطلب ما تشاء من القيمة النقدية.. فأرسلتها مصورة على ورق، وكنت قد طلبتها مصورة على ميكروفيلم.. أما القيمة النقدية فقد أجابت عنها بقولها: عندما تطبع كتابك، فأرسل لنا نسختين!

والمستشرقون لم يكتفوا بجمع مخطوطاتنا، وصونها وفهرستها، بل عمدوا كما ذكرت إلى إحيائها بنشرها عن كفاية وجلد وافتنان على أحدث منهج علمى من قراءة نصوصها الصعبة فى أوراق طمس الزمن الكثير من ملامحها، ثم مقابلتها بنظيراتها، والتماس الأصالة فيها، والتثبت من صحة نسبها إلى أصحابها بتعدد الأقلام وفى مختلف الأزمان مهما كلفهم ذلك من

---

(١) البخلاء ص ١٠ المقدمة.

(٢) انظر تصدير مشكاة الأنوار بتحقيق أبو العلا عفيفى ص ١.

عناء ووقت ومال. والمستشرقون يحرصون على تأدية النص أداءً صحيحا، كما تركه مؤلفه، وذكر فروق النسح المخطوطة. فيما دقّ وجلّ، ويبالغ بعضهم فى ذلك، حتى إنه يترك الخطأ البين دون إصلاح، بحجة أن ذلك يمثل لغة المؤلف وعصره.

وقد وفر لنا المستشرقون ألوف الذخائر العربية مرتبة محرّرة موثقة، تجلها مكتباتنا وتعتمد عليها جامعاتنا، ويستند إليها علماؤنا، إذ سبقنا المستشرقون إلى نشرها. ولقد أحصى المستشرقون تراثنا الأدبى واللغوى والدينى والعلمى من منابعه، وتأثره بغيره إلى تطوره وأثره فى غيره؛ لتحديد الدور العلمى الذى اضطلع به، لا حصره فى النطاق العربى الذى درجنا عليه، وعكفوا عليه فى جلد وأناة وشغف، وبلغ من دقتهم أن أحصوا الكثير مما فات معاجمنا القديمة من مفردات جمعوها من أمهات الكتب وأرجعوا المفردات إلى معانيها لاالأولى وذكروا المولّد منها: فأبو حيان والمسعودى وابن خلدون والبيرونى ونظراؤهم من الكتاب الذين نشأوا فى الأندلس أو شمال أفريقيا أو آسيا الوسطى استعملوا ألفاظا فى غير معانيها التى وضعت لها أصلا، أو محدثة أو مبتدعة من اللغات المجاورة، وكتب «كارلو ألفونسو نلّينو» عن التصحيفات العربية فى معجمات اللغة، ووضع «ليفى دلا فيد» إضافات إلى المعاجم العربية... ثم اعتمادهم على مخارج الأصوات فى اللهجات كمعجم فيشر للغة العربية، وقد قضى أربعين سنة فى ترتيبه على المصادر، وأقر المجمع اللغوى فى مصر طبعه وبوفاة مؤلفه استعادته ألمانيا وباشر مستشرقوها نشره سنة ١٩٥٤[١].

والمنهج العلمى فى النشر: لم يبتدعه المستشرقون ابتداعًا، بل لا أكون مغاليا إذا قلت: إن النشر العلمى لم يعرف فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر، فيذكر لنا لانْجُلْوَا الفرنسى: «أن العلماء المحصّلين أنفسهم - ومهمتهم أن ينشروا الوثائق - (وهم من يعرفون عندنا اليوم بالمحققين) لم يكتشفوا فن تصحيح النصوص من أول وهلة، فمنذ عهد غير بعيد كانت الوثائق تنشر عادة وفقا لأية مخطوطات اتفقت للناشر! صحيحة كانت أو سقيمة، مختلطة ومصححة كما اتفق. إن نشرات النصوص القديمة صارت غالبيتها اليوم (١٨٦٧-١٨٩٦)[٢] نقدية، ولكن النشرات النقدية الأولى لمؤلفات العصور الوسطى الرئيسية لم تتم إلا منذ أقل من ثلاثين عاما، ولا يزال النص النقدى لبعض مؤلفات العصور القديمة الكلاسيكية (مثل نص كتاب ياوسانياس) بحاجة إلى من يقوم بنشره»[٣].

ويذكر فى موضع آخر: «لقد كان على العلماء المحصلين فى الماضى ومثلهم الناشئون فى هذه الأيام، كان عليهم فى مثل هذه الحالة أن يكبحوا حركة أولية بغيضة تصدر عفوا، ألا

---

(١) المستشرقون ٣/١١٣٢.

(٢) فى هذه الفترة المذكورة كان يلقى لانجلوا وسنيوبوس محاضرتها فى السوربون عن المنهج التاريخى.

(٣) لانجلوا. النقد التاريخى ص ٧٥.

وهى: الاستعانة بأية نسخة تقع فى متناول اليد، والحركة الثانية ليست خيرًا من الأولى، إذا كانت النسخ المختلفة ليست من عصر واحد فيستعان بأقدمها، والواقع أن الأقدمية النسبية للنسخ ليست لها نظريا وواقعيا فى كثير من الأحيان أية أهمية»[١] فحتى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن العلوم المساعدة، والوسائل الفنية للتحقيق والنشر منظمة آنذاك، وفى منتصف القرن التاسع عشر أنشئت فى فرنسا (مدرسة الوثائق) ولا يزال حتى اليوم خير إعداد للمحقق أو للناشر هو ما يتم فى مدرسة الوثائق، وعلى أو فى ما يكون، وذلك بفضل دروس متدرجة طوال ثلاث سنوات تتألف من الفيلوجيا القديمة، وعلم الخطوط القديمة[٢].

فالأوربيون لم ينشروا تراثهم نشرا علميا إلا فى القرن التاسع عشر، والنشر الذى سبق هذا العصر كان نشرا ساذجا بسيطا.

ويقول برجشتراسر فى مقدمة كتابه أصول نقد النصوص ونشر الكتب: «وقد نشأ هذا العلم (أى توثيق المخطوطات وتصحيحها) وترعرعت هذه الصناعة فى أوربا منذ القرن الخامس عشر بعد الميلاد، وذلك حينما اهتم القوم هناك بإحياء الآداب اليونانية واللاتينية، فكانوا يومئذ إذا وجدوا كتاب من كتب القدماء قاموا بطبعه، لا يبحثون عن النسخ الأخرى لهذا الكتاب، ولا يصححون إلا أخطاءه البسيطة، فلما ارتقى علم الآداب القديمة، عمدوا إلى جمع النسخ المتعددة لكتاب من كتب القدماء، وإلى إحدى الروايات المختلفة، ووضعوها فى نص الكتاب، وقيدوا ما بقى من الروايات فى الهوامش، ولكنهم مع ذلك تعمدوا انتقاء المهم منها واستنتجوا اصطلاحات حدسية يخالفون بها ما هو مروى فى النسخ، إلا أنهم فى كل ذلك لم يكن لهم منهج معلوم ولا قواعد متبعة؛ لأنهم لم يكونوا قد فكروا تفكيرا نظريا فى تصحيح الكتب، وأى الطرق تؤدى إليه، وأيها لا تؤدى، بل قد تؤدى إلى غرض باطل فاسد. وما زال الأمر كذلك حتى أواسط القرن التاسع عشر حين وضعوا أصولا علمية لنقد النصوص ونشر الكتب القديمة، وكان أول ما وصلوا إليه من هذه القواعد مستنبطا من الآداب اليونانية واللاتينية، ثم من آداب القرون الوسطى، فألفت المقالات والكتب فى فن نقد النصوص[٣].

ويعد من أدق المناهج التى عرفت فى نشر النصوص ما يمثله «كتاب نقد النص» «لبول ماس» الذى نشر أول ما نشر سنة ١٩٢٧[٤].

---

(١) النقد التاريخى ٨٠ - ٨١.

(٢) انظر النقد التاريخى ٦٢ ، وانظر ما ذكرناه ص٣١٢-٣١٤ من هذا الكتاب عن اقتراح إنشاء هيئة عليا للتراث.

(٣) مقدمة أصول نقد النصوص ونشر الكتب وانظر المراجع المبينة به.

(٤) بوصفه القسم السابع من موسوعة جوركة ونوردن بعنوان (المدخل إلى علوم الأوائل) ثم نشر على حدة فى ليبسك سنة ١٩٤٩ عند الناشر تويبنر ثم نشرة ثالثة سنة ١٩٥٧ ولقد قسم ماس كتابه إلى قسمين: الأول نظرى والثانى أمثله تطبيقية على الأسس التى وضعها فى القسم الأول ولما كانت هذه الأمثلة مستمدة كلها من الأدبين: اليونانى واللاتينى ولا تفيد إلا من=

وبالمثل فإننا نجد النشرات الأوربية للكتب العربية فيما قبل القرن التاسع عشر نشرات هزيلة بسيطة ساذجة حتى فيما نشره «دى ساسى» نفسه، أما نشراتهم فى القرن التاسع عشر وحتى الآن فهى نشرات لها وزنها العلمى ومنهجها المتقن، ولم أصدر هذا الحكم اعتباطا فقد رجعت إلى ما أمكننى الرجوع إليه من طبعات أوربا قبل القرن التاسع عشر، أذكر منها: شرح أشعار الهذليين، وطبقات فحول الشعراء إلى غير ذلك من الكتب التى طبعت فى القرن الثامن عشر[١].

وبما أنهم دخلاء على التراث الشرقى فقد اصطنعوا التمحيص والدقة فيه؛ لعلمهم بأن الأخطاء الفاحشة والتحريف والتضليل تنال من أقدارهم فى أعين الشرقيين، وتصرف الأنظار عنهم، وكان المستشرقون عديدين من دول متعددة يقرءون ما يكتب فى موضوعهم بسائر اللغات، ويصحح بعضهم للبعض الآخر، وينزلون على الصواب متى أيقنوا الخطأ ويقولون: «إنا نحن المستشرقين لا نعرف العربية، فهذا أمر مشهور مجمع عليه لا ينكره عالم، ولا يدحضه عارف؛ فلذلك نحتاج إلى تقويم العلماء وإرشاد الفضلاء أمثال مرشدى الفاضل الذى نبهنى إلى ١١٦ خطأ لا غير (مائة وستة عشر[٢])».

وقد التمس بعض علمائنا العذر لأخطاء المستشرقين فى النشر فقال: «إن الأسفار الأدبية الأولى كانت تنسخ نسخا، وكانت سوق النساخ رائجة دفع بعضهم إلى الصنعة التجارية فيها؛ فوقع تحريف كثير، ونصلت الكتابات! فما يستطيع المحقق اليوم بعد طول عهد الكتابة أن يتميزها، فاعتاصت على بعض المستشرقين كلمات، كما وقع فى «ذيل المعاجم العربية» لدوزى منها: أتان وصحيحها آثار، - مؤدى - مودة، الإبريسم الإبرسيم، ألف مائة دينار - مائة ألف دينار، وقد صححها الشيخ إبراهيم اليازجى[٣]».

وكذلك قابلتهم صعوبة الشرح فى بعض فنون الأدب، وفى قواعد اللغة العربية وأصولها، وترجمة بعض النصوص[٤]: كجمع بعضهم لورد على لوردين! بدلا من لوردات؛ لأنها جمع مذكر عاقل، وقد أجيزت من بعد، وتفسير كازانوفا: أمِّى بشعبى، وترجمة كازيير سكى.

قوله تعالى: ﴿اسْجُدوا لآدَم فسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أبَى﴾ باعبدوا آدم.

=يتقن هاتين اللغتين فقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوى القسم الأول فقط، وهو يشمل ثلاثة أخماس الكتاب لأنه وحده الذى يفيد فى كل لغة وبالنسبة إلى كل تاريخ وأدب، انظر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مقدمة النقد التاريخى ١٤ - ١٥ والكتاب المذكور منشور ضمن هذا الكتاب.

(١) انظر طبقات فحول الشعراء المطبوع فى ليدن سنة ١٧٨٥.

(٢) شارل بيلا المستشرق حول كتاب البغال: مجلة معهد المخطوطات م ٣ جـ ١ ص ١٦٢ وكان قد انتقده الأستاذ عبد السلام هارون.

(٣) انظر المستشرقون جـ ٣ ص ١١٥٢ والمراجع المبينة به.

(٤) انظر مقدمة رسالة الغفران للدكتورة عائشة عبد الرحمن.

وفى رسالة الغفران للمعرى فى الحديث عن شعراء الجنة قال أبو العلاء: «فيبتدئ بزهير يجده كالزهرة الجنية» فسَّرَ المستشرق نيكلسون الجنّى بالثمر جُنِيَ لساعته! وواضح أن أبا العلاء يصف زهير بن أبى سلمى بالشباب فى الجنة بطول ماشكا الشيخوخة فى الدنيا، وسئم تكاليف الحياة الأولى، لكن نيكلسون ظن أن الزهرة الجنية عَلَم لشخص.

وفيها أيضا «كم نتظاهر باعتزال، يقنط على رهط الأخبار، ويسند إلى عبد الجبار» وظاهر أن عبد الجبار هنا هو القاضى المعتزلى المشهور صاحب المغنى أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد - القرن الخامس الهجرى - لكن نيكلسون ترجمه بمحمد.

تخبرنا محققة الغفران أنه «طالما عرفنا للمستشرقين أثرهم فى نشر تراثنا القديم واعترافنا لهم بالفضل فى وضع منهج للنشر العلمى الحديث، وأن أكثرنا قد بهره منهم هذا الجهد الشاق فى درس الأدب العربى، وتلك العناية الفائقة الكبيرة بنشر مخطوطاته، فلم يعنه وراء ذلك أن يقف طويلا أمام النصوص التى ينشرونها، ليسأل عن مدى فهمهم للنص العربى ومقدار حظهم من التوفيق فى قراءته وأمانتهم فى توجيهه.. أول ما نذكره لنيكلسون هنا تلك الدقة المنهجية التى اتبعها فى قراءة مخطوطته وعرضها، وتبدو هذه الدقة فى مظهرين:

أولهما: الأمانة: فلم يغير شيئا من النص دون أن ينبه على ذلك ويثبت الرواية الأصلية بها، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمته، كذلك لم يبح لنفسه حق زيادة شىء على الأصل، فإن احتاج السياق عنده إلى كلمة أو كلمات وضعها بين أقواس، ونص بصراحة على أنه مسئول عنها وأنها ليست من الأصل.

والثانى: لدقته المنهجية: أنه وصف المخطوطة التى نقل عنها، وذكر نسبها وتحرى عنها.

أما فهمه للنص ففيه أخطاء كثيرة! بعضها هيّن يمكن التجاوز عنه، أما الكثرة الباقية فنعرض صورا غريبة لفهم هذا المستشرق الكبير للنصوص العربية[1]».

والحق يقال: إن بعض المستشرقين كانوا يرفضون بعض تصحيحات أبناء العربية لهم، كما فعل بروكلمان فى نقده لنشرة دار الكتب لعيون الأخبار[2] «وعِلْمهم بمعنى الأدب والبلاغة عِلْمٌ معجمىّ، يضع الكلمة أمام لكلمة، ولا ينفذ منها إلى اللباب[3].

يذكر الأب أنستاس مارى الكرملى أن «علم المستشرقين عرضه للنقد والتحقيق، كسائر الناس، ولابد أن ينتقدوا الانتقاد الصحيح ليظهر الغثاء وينبذ، ويبلغ إلى صميم الحق

---

(١) أحيل القارئ على مقدمة رسالة الغفران ط: دار المعارف سنة ١٩٦٩ ففيها مقارنات عجيبة توضح الفرق بين فهم أبناء اللغة العربية لنصوصها وفهم المستشرقين لنصوص العربية.

(٢) انظر مجلة المجمع العلمى بدمشق م ١٤ سنة ١٩٣٦ ١١١/١ - ١٢٦ وانظر كذلك مجلة معهد المخطوطات م ١٦٢/١٣.

(٣) المستشرقون ١١٥٤/٣.

فيتبع، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين من جميع الأمم وفى جميع التصانيف ومانشروه من الكتب، ولا يمكننا أن نتعرض لجميع هفواتهم، فهذا يدعونا إلى وضع سفر ضخم[١].

يقول المستشرق ستورى: «إنكم فى البلاد العربية تعتقدون أن المستشرقين متعصبون على الإسلام، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد، نعم إن هناك فريقًا تعصب بحكم صنعته التى يرتزق منها، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم، وليس من الإنصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين. إن الذين خدموا العربية كثيرون، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون منصفا، وإن أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل إلى تقويمه أن يجرّح ويقذف، ثم إنّا نبحث لغات بعيدة عنا ونخوض فى موضوعات فى غاية الدقة، مستعينين بالأساليب الحديثة، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح - إن أخفق فى عملية جراحية - حسن نيته، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول إلى النتائج دون تعصب[٢].

ولقد عقدت مقارنة بين أكثر من كتاب منشور بمعرفة المستشرقين ثم أعيد نشره بمعرفة العلماء العرب، وذلك بعد نهضة التحقيق عندنا فى العربية فرأيت العجب: فمثلا فى قصيدة كعب بن زهير المنشورة فى مجلة المجمع العلمى بدمشق م١٤ جـ١ بتحقيق المستشرق البولونى تداوسن كوفلسكى. البيت المشهور ذكر فى تحقيق المستشرق:

تَـزِنُ الجِبَـالَ رَزَانَـةً أحْـلَامُهُمْ وأكـفّـهـم خـلْفٌ مـن الأمْـطَار

وإنى أحيل القارئ إلى تحقيق الشعر والشعراء «لدى غويه» وليقارنه بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، فقد نبه على أخطاء «دى غويه» فى مواطن كثيرة لا داعى لتعدادها.

وقد وضع دى غويه للكتاب فهرسين للأعلام والأماكن فقط، فيسر للباحث سبيل البحث والاستدلال، وعندما أعاد تحقيقه الأستاذ أحمد شاكر وضع له فهارس جمة متقنة للكتاب على أبوابه، وللأعلام عامة وللأماكن والقوافى ولأيام العرب، ووقائعها، والفهرس المهم فهرس الألفاظ المفسَّرة فى الكتاب.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات: طبع لأول مرة فى ليدن سنة ١٧٨٥م وهذه الطبعة ساذجة بسيطة وتوجد نسخة منها فى أدب تيمور بدار الكتب المصرية، ولعل قارئها يجد فيها دليلا على ما ذكرته سابقا من أن تحقيق المستشرقين فيما قبل القرن التاسع عشر كان ساذجا

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق م ١٤/٧/٢٣٥ وما بعدها فقد سجل الكثير من أغلاط المستشرقين وتابع أخطاءهم ونشرها فى هذه المجلة.

(٢) المستشرقون ٣/١١٦ ناقلا هذا النص من علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤ للدكتور إسحاق الحسينى جـ ١ القدس سنة ١٩٤٠.

بسيطا، ثم أعيد طبعه فى ليدن أيضا سنة١٩٠٢م بعناية المستشرق دى غويه. ثم طبع بعد ذلك فى مصر عدة طبعات سقيمة مبتورة كثيرة التصحيف والتحريف على ما هى العادة فى طبع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى مصر، فهذه الطبعات لا تعد شيئا مذكورا بالقياس إلى طبعة ليدن الثانية، ولكنها أقرب إلى طبعة ليدن الأولى سنة١٧٨٥م حيث إن الطبعة الثانية فى ليدن قد عنى بها دى غويه فراجعها على خمس مخطوطات استحضرها من ڤينا وبرلين وباريس ودمشق والقاهرة وأثبت ما بين النسخ من اختلاف فى هامش الكتاب، وبذل مجهودا كبيرا فى مراجعة كل موضع من المواضع التى اقتبسها المؤلفون من الكتاب.

وقارِنْ - إذا أردت - البخلاء الذى حققه الدكتور طه الحاجرى بالبخلاء التى حققه المستشرق فان فلوتن.

* * *

وبعد: لقد تغيرت صورة الاستشراق اليوم عما كانت عليه فى مطلع القرن العشرين، أو فى القرن التاسع عشر، أو فى العصور الوسطى، وذلك نتيجة تغير الأوضاع السياسية فى الشرق العربى، ونتيجة النهضة القومية، واليقظة الفكرية التى نشهدها اليوم، ونتيجة تطور العلاقات السياسية بين الدول العربية والدول الأوربية، فأصبح الاستشراق فى السنوات الأخيرة يعيش فى دائرة محدودة ضيقة بعد السيول الجارفة من أبحاث المستشرقين ونشراتهم لكتب التراث، التى شهدناها فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأصبح الاستشراق الآن يعيش فى البيئات الأوربية، بعد أن أغلق الشرق العربى أبوابه فى وجه المستشرقين، حينما كانت الدول العربية فى مطلع القرن العشرين تحت انتداب الدول الأوبية كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها أمام المستشرقين، وتمتع المستشرقون بحرية تامة فى التجول بين مكتبات الشرق العربى، يسطون أحيانا على مخطوطاتها، أو يصورونها أو ينسخونها، أويشترونها على حسب رغباتهم، وينبشون الآثار القديمة فى البلاد العربية، ويسلبون معظمها ليملأوا بها المتاحف الأوربية، وكان العرب لا يزالون فى مطلع القرن العشرين فى أول طريق النهضة والثقافة، مما جعلهم فى حاجة إلى تلك البضاعة الأجنبية المستوردة التى يقدمها لهم المستشرقون، وكان كثير من المستشرقين يظهرون فى ثوب البراءة ويؤكدون حسن نيتهم، وأنهم إنما يريدون الكشف عن التراث العربى والإسلامى ودراسته، تبعا للمنهج العلمى الحديث، خدمة للعلم والحضارة فحسب، وكان العرب إذا أرادوا الاطلاع على التراث العربى لا يجدون أمامهم إلا ما حققه المستشرقون ونشروه، حتى أصبح الميدان مقصورًا عليهم.

* * *

مقارنة بين عمل المستشرقين وعمل أبناء العربية

وكما سبق أن ذكرت فإنى عقدت أكثر من مقارنة بين تحقيق العرب خلال القرن العشرين وتحقيق المستشرقين، فرأيت: أنه بدأت نهضة فكرية وعلمية فى أرجاء الشرق العربى، وظهر من بين علماء العرب أفذاذ فى فن التحقيق بل فى سائر فروع المعرفة، وقاموا بنشر وتحقيق أمهات الكتب العربية القديمة على أحدث الطرق التى وصل إليها الأوربيون بل زادوا على هؤلاء المستشرقين لفقههم بلغة قومهم ولغة أسلافهم.

فالشيخ رفاعة الطهطاوى إمام البعثة العلمية الأولى إلى باريس والذى تتلمذ على إمام المستشرقين دى ساسى[1] نقل إلينا ما نقل من حضارة الغرب، وحرص فى الوقت نفسه على أن يجمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا، عمرت بها خزانة كتبه فى سوهاج.

والإمام الشيخ محمد عبده الذى ألقى به الصراع السياسى إلى أوربا حيث عاش زمنا يتابع جهاده من هناك، هو الذى جعل مطبعة بولاق الأميرية تدور لطبع ذخائر العرب.

وشيخ العروبه أحمد زكى كم نادى بوجوب تحقيق تراثنا على الطريقة العلمية، طريقة الأسلاف كما سبق أن ذكرنا فى موضعه، وقام برحلات متعددة لجمع كنوز تراثنا، ونقل إلينا ما استطاع نقله منها.

والعلامة أحمد تيمور، العصرىّ الثقافة والنشأة فى جيله، هو الذى أنفق ماله بسخاء على جمع ذخائر المخطوطات العربية، ووهب لها حياته جامعا ودارسا ومفهرسا.

حال المخطوطات العربية فى فجر اليقظة:

وهؤلاء الرواد حين أرادوا تدعيم حركة اليقظة القومية بأصول من تراثنا ألفوه مبعثرا فى شتى أنحاء الدنيا، فعجزوا عن استيعاب ما فى خزائن الغرب منه! بل عجزوا كذلك عن أن يحيطوا علما بما بقى لنا من ذخائره، ومنها ما كان مدفونا فى خزائن خاصة لا يدرون عنها شيئا! أو مخزونا فى سراديب الجوامع وأقبية القصور! أو مكدسا فى كهوف اليمن، ملكا خاصا لحكام من الأئمة لا ينتفعون به ولا يريدون له أن ينفع الناس! فلا غرابة ولا ملام أن قصر جهد الحركة فى فجر اليقظة على جمع ما أمكن جمعه من مخطوطات التراث وصيانته فى مكتباتهم الخاصة كمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج، ومكتبة محمد عبده، والمكتبة الزكية، والمكتبة التيمورية، وهى الآن من المكتبات الخاصة بدار الكتب المصرية، وقد حفظ بعضه

---

(١) انظر تخليص الابريز فى تلخيص باريز.

الآخر فى مكتبات عامة أتاحت الانتفاع به، ونشر عدد غير قليل من ذخائره، أدت دورها فى حركة اليقظة القومية بقدر ما واتت ظروف المرحلة وأعانت طاقتها. ومضى جيل الرواد وترك الأمانة فى أعناق التابعين فوجدوا الطريق معبدا، فوفوا برسالتهم على المستوى العلمى الذى بلغه نضجهم وإدراكهم، وتقدم الزمان بهم.

ونرى هؤلاء التابعين فاقوا الرواد من المستشرقين، وكثيرا ما كانوا يصرحون بذلك فيقول الأستاذ أحمد شاكر فى مقدمة شرح الترمذى ص٦٤: «إنما أرجو أن يجد القارئ هذا الكتاب تحفة من التحف، ومثالا يحتذى فى التصحيح والتنقيح، وأصلا موثوقا به حجة، وليعلم الناس أننا نتقن هذه الصناعة - من تصحيح وفهارس ونحوها - أكثر مما يتقنه كل المستشرقين ولا أستثنى».

وإن المتصفح لطبقات فحول الشعراء طبعة ليدن سنة ١٨٧٥م يجد فيها بعض المقابلات القليلة جدًا، ولم توصف النسخ أو النسخة التى أخذت عنها وهى أقرب ما تكون فى إخراجها إلى طبعة بولاق فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أما طبعة ليدن سنة ١٩٠٢، نشر دى غويه ففيها دقة المستشرقين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ وصف كل النسخ التى أخذ عنها وعمل لها فهرسين للأعلام والبلدان ومقدمة باللاتينية، وحرص على إثبات فروق النسخ بكل دقة وأمانة مع الرمز لها، أما طبعة باريس سنة ١٩٤٧ فقد اعتمدت على نشرة دى غويه، وكذلك طبعة القاهرة بتحقيق أحمد شاكر فقد اعتمد عليها إلا أنه شرح بعض الألفاظ الغريبة، ولم يثبت اختلاف الروايات إلا قليلا، ولعله رأى أن اختلاف الروايات ما هى إلا أخطاء نساخ ظنها غير أبناء العربية أخطاء جوهرية، ولئن كانت طبعة القاهرة تمتاز، فإن نشرة دى غويه تمتاز بميزة عظيمة أيضا فقد حرص الناشر كل الحرص على إثبات كل خلاف بين النسخ - على عادة المستشرقين - مهما كان شأنه ليكون القارئ على بينة منه، فيختار ما يختار ويرد ما يرد بذوقه الخاص ورأيه المستقل، ولا يكون مقيدًا بذوق الناشر ورأيه، فقد يكون الناشر مصوبا للخطأ أو مخطئا للصواب وهو لا يدرى! والأنظار متباينة والأفكار متفاوتة، وقد لاحظت أن المستشرقين لسعة درايتهم باللغات السامية فإنهم يرجعون اللفظ المعرب إلى أصله الأعجمى أو اليونانى أو غير ذلك من أصوله.

والمستشرقون على وجه العموم يهتمون بفروق القراءات أكثر مما يهتمون بالشروح والتعقيبات، وما من شك فى أن الأمرين مطلوبان، فنحن بإثبات المقابلات ملزمون، ثم نحن - أصحاب هذا التراث - نحس بعد هذا حاجة القارئ إلى تيسير وتوجيه وتبيين، ويمثل الأستاذ أحمد شاكر الجهد العربى قائلا: «واجتهدت فى تخريج ما فى الكتاب من شعر

وغيره على ما وسعه جهدى، أى بيان أماكن وجوده فى الكتب الأخرى على نحو اصطلاح المحدِّثين فى تخريج الأحاديث[١]».

وبالمثل فإن مقارنة البخلاء للجاحظ ط. دار المعارف سنة ١٩٥٨ بتحقيق الدكتور طه الحاجرى، ونشره فان فلوتن تدل على أن فان فلوتن بذل غاية جهده، فى مراجعة المخطوطة الوحيدة التى أتيحت له، ومقارنة ما عسى أن يوجد من نصوص البخلاء فى بعض المصادر الأخرى، واستشارة بعض العلماء المستشرقين، مثل دى غويه فى تحقيق نصه، واستجلاء بعض مشكلاته، وتحرير بعض عباراته، حتى يجىء الكتاب أقرب ما يكون إلى ما كتبه الجاحظ على ما هو الأصل فى النشر العلمى، ومع ذلك كله فإنه لم يمنع أن يجىء الكتاب مليئا بالأخطاء التى تجعل النص فى بعض المواضع غامضا مستغلقا كما تجعله فى مواضع أخرى ركيكا سقيم العبارة متنافرًا مع الصياغة العربية.

ويذكر الدكتور طه الحاجرى فى مقدمته لنشرته أن جزءا كبيرا من تبعة هذا يقع بطبيعة الحال – على اضطراب النص فى المخطوطة، واشتباه الحروف العربية بعضها ببعض فى كثير من الكلمات، مما يحتاج فى تبين الوجوه فيه إلى بصيرة قوية تمدها الروح العربية، وإلى مرانة تامة فى قراءة المخطوطات، وتبيين ما عسى أن يعرض للناسخين الذين يتعاورون الكتاب من حالات.

على أن هناك كثيرًا من مواضع الخطأ فى نشرة فان فلوتن لا يرجع إلى المخطوط قدر ما يرجع إلى فان فلوتن نفسه! فقد يكون النص فى المخطوطة صحيحا مستقيما لا تكاد تداخله شبهة فيضطرب فى عينى فان فلوتن فيسىء قراءته فيحرفه عن أصله، أو يضطرب فى إدراكه إذ لا يتبين وجهه ودلالته فيعدل به عن موضعه بقصد تصحيحه، وهو لا يدرى أنه بذلك يزيد النسخة فسادًا إلى فساد.

يقول شيخنا محمود شاكر فى مقدمة تحقيقه لكتاب «أسرار البلاغة» ص٩ المنشور سنة ١٩٩١ يقول: «ضعاف المحققين منا (أى من العرب) الذين يتكثّرون بما لا ينفع الكتاب، ولا يهدى القارىء إلى شىء ينتفع به فى قراءة ما بين يديه من الكتاب».

ويكفى ما قدمته دليلا على فقه المحققين المعاصرين من أبناء العربية عن المستشرقين وليس هناك من داع لتعداد الكتب التى قارنت بينها فما أكثرها.

* * *

(١) مقدمة أحمد شاكر للشعر والشعراء.